

مكتبة الثقافة

٥

طب وسحر

الدكتور بول غليسونجي

الأستاذ بكلية طب جامعة عين شمس

وزارة

الثقافة والدراسات القومية

الأقاليم الجبلية

الإدارة العامة للثقافة

اهداءات ١٩٩٩

١/ محمود محمد علي العيسوي

الإستغربة

المكتبة الثقافية

٥

طب وسنن

الدكتور بول غاليو جي

الأستاذ بكلية طب جامعة عين شمس

وزارة

النفاذ والارشاد القومي

الاقليم الجنوبي

الإدارة العامة للثقافة

الناشر

مكتبة النهضة

٩ شارع عدلى

دار القمام

١٨ شارع سوق التوفيقية

بالقاهرة

تقديم

نخطئ إذا ظننا أن الإيمان بالسحر — وما إليه من الأشياء التي يذكرها العقل ويمدها من الخرافات — نبت في ذهن الإنسان نتيجة للصدقة أو الارتجال ، ويكفي أن هذه الظاهرات سايرته آلافاً من السنين وأنها ما تزال تسيطر على نواح كثيرة من سلوكه اليومي ، وهذا دليل على أنها استمدت أصولها من إملاء قلوب السلف استجابة لحاجتهم الاضطرارية إلى المعرفة ، أو تخيل المعرفة ، ليتغلبوا على القلق الأزل الذي كان يبتليهم في خضم الكون ومخاطره .

وقد اختلفت طبيعة تلك الاستجابة باختلاف صور العالم التي صورتها لهم معارفهم وأوهامهم في مختلف الحقب واليئات . ولعل الإنسان أول ما وعى لم يميز بين نفسه ومحيطه ، فخل إليه أنه مجرد عضو من جسم عالمي فيه كل محتويات الكون ، وهو — كالجسم الآدمي — متضامن الأعضاء يعين بعضها بعضاً ، حتى إنه يمكن ، بحكم تضامنه الكامل مع العالم ، تحريكه وفق إرادته إذا ما عرف سر تلك الروابط .

تلك الفكرة ، وهى أن الإنسان يملك سلطاناً على القوى الخارجية يعرف كيف يديرها على نحو ما ، هى أساس السحر . ولقد كانت مرحلته التالية فى تطور تفكيره وفى محاولته تفسير مظاهر الكون ، أن عزا إلى كل الكائنات روحاً خاصة وأسند إليها إرادة ذاتية وتصور أنها دائمة التدخل فى حياته اليومية . . . ثم ألهمها كلها كما ألله كل ما كان يحمله ويخشاه ، وهذا ما يسمى الروحانية (animism) .

وخطا بعد ذلك خطوة أخرى ، عندما اختار لها من بين مجموعة الكائنات المؤلّهة ، ليكون لأسرته حامياً ورمزاً وعلماً ورباً فى وقت واحد ، وعده أرومة سلالة . وهكذا نشأت الديانات التوتمية (totemism) التى اتخذت حيواناً إلهاللقبيلة ، فحرمت أكله ، أو نبراً فحظرت الاستجمام فيه ، أو شجراً أو كهفاً أو جبلاً أو بركانا . . . فنهت عن الاقتراب منه اللهم إلا إذا عرف من يعتدى على حرمة هذا المحرّم وسائل إبعاد اللعنة ، وفى تلك الحال كان الحرام يتحول إلى قداسة واللعنة إلى بركة ، وتحل روح الإله فيه ، فيضحي آكل لحم هذا الحيوان ، أو المستحم فى مياه ذلك النهر ، مستوعباً إياه ، بما تلاله ، بل يصبح هو الإله ، ولذا فإن معرفة تلك الطرائق كانت تعد — بطبيعة

الحال — من أخطر الأسرار ، ولا سيّما إلهيا لغير الكهنة
والسحرة وأشرف القبيلة .

وفي مصر سلك الدين تلك الطريق ، ويعتقد علماء أصول
الإنسان أن الأصل في تسمية كل متاعلة باسم حيوان ، تلك
العادة التي استمر الأخذ بها طوال تاريخ مصر القديمة ، يرجع إلى
تأليه التباثل التي كانت تحتوى هذا الحيوان أو ذاك ؛ فكانت
أسبوط تحتوى الذئب ، والمنيا تحتوى الأرنب ... الخ .

وعندما تكتلت القبائل الجاورة أو المتجانسة ، تحت ضغط
مقتضيات السياسة أو المنفعة ، ونشأت منها إمارات ودول ،
رأى أصحاب السلطان أن الحكمة تقتضى باحتفاظ كل قبيلة بألحتها ؛
وأن تعترف الدولة بالآلهة المحلية ، بعد تنصيب إله القبيلة الحاكمة
إلهاً فوق الآلهة ، ورفعها إلى مستوى إله الكون . وكان لهذا
الإجراء سبب سياسى هام ، هو أن الملك كان يعتبر حفيد الإله
ويمثله على الأرض ، فكان يتحتم أن يكون إله رب الأرباب
الآخر .

وظهرت فيما بعد بين الكهنة الناهيين نزعة فلسفية كونية عزت
إلى كل إله معنى كوني ، وجعلت من الإله الأول خالفاً للكون ،
ومن الآلهة الأخرى أتباعاً ، أو رعايا له ، أو رموزاً لبعض

صفاته ، أو يمثلين لبعض أشكاله ، وأدبجتهم في نظرية عامة للكون . وأصبحت الأساطير الفردية في أساطير عامة ، تتحدث عن علاقات الآلهة بعضهم ببعض ، ومنازعاتهم على السلطان ، في شكل وقائع تاريخية ، زعمت أنها جرت في عصر سحيق ، حكم الآلهة في غضون البشرية على الأرض . ولا شك في أن تلك الأساطير بنيت على أسس تاريخية تقليدية ، وإن صعب أحياناً تخليصها بما حاكه حولها — على مر الأجيال — خيال الشعب الخصب ، وتأملات السكينة الفلسفية .

الأسس النفسية للإيمان بالسحر :

أسمينا بعض الإسهاب في تتبع مراحل التفكير البشري في الكون ، لأن السحر في كل عصر بني عليه ، واصطبغ بصبغته ، وابتكر أساليبه تبعاً لذلك ، وأملى قواعد الحياة الاجتماعية وفقاً لمقتضيات هذا التفكير .

والآن ، يمكن حصر متومات السحر في ثلاث ، هي :

أولاً : الاعتقاد بوجود قوة خفية - لا شخصية ولا مادية - تنظم العالم ، وأن تلك القوة التي سميت أحياناً « مانا » ، يمكن للساحر أن يأسرها في جسده ، ثم يحلها بدوره في جسد

غيره ؛ وأن يسخرها بصفة عامة لأغراضه عن طريق وسائل معينة .

ثانياً : المنطق الكاذب الذي يستقرى من التماس السطحي ،
 المثل من المثل ، والذي يرى روابط بين الشيء وشبهه ، وبين
 الشيء ولأسمه ، كأن يعتقد أن أى عمل أتى بتيجة في الماضي
 سوف يأتي حتماً بمثلها في المستقبل ، وأن اسم الإنسان يحدد
 مصيره ، وأن العقار إذا شابه عضواً فإنه يشفى آلام هذا العضو ،
 وأن خواص الأرقام والأشكال الهندسية ، تكسيها صفات
 ملائمة . ومن أمثلة ذلك التمكيز ، الاعتقاد بأن صب الماء على
 الأرض ، يسقط المطر . وأن إلحاق أى أذى بنموذج يسبب
 مثله في الأصل ، وأن يوماً من الأسبوع وقعت فيه كارثة يظل
 شؤماً في المستقبل ... الخ ...

وما تزال كثرتنا ، ولا يزال من المثقفين أنفسهم ،
 من يؤمن بخواص رقى ١٣ أو ٧ ، أو يتشاءم من السفر يوم
 الجمعة ، أولاً يتحدث عن مرض إلا مسبقاً بعبارة « عدوك ،
 أو « برّه وبعيد ، بل يتحاشى التلفظ بأسماء الأمراض القاضية
 كالسرطان ، ويكنى عنها « بالمرض الملعون ، أو بكناية أخرى ،
 ولا يقدم على عمل إلا تضرع قلبه بالدعوات . ولست أقول إن

الابتهاال إلى الله تعالى ضرب من ضروب السحر ، ولكنى أعنى
 أن الباعث النفسى الذى يملى هذا التضرع إلى إنسان القرن
 العشرين هو الشعور القهرى نفسه الذى كان يوعز بتلاوة
 التعاويذ فى العصور النائية ، إذ أن الإيمان بالأصنام أو
 بالأرواح كان فى ذلك الوقت ، فى مثل قوة إيماننا اليوم بالله
 ورسله ، فضلا عن أن حاجة الإنسان إلى سند عاوى هى من
 الظواهر الباقية .

ثالثاً : عدم إدراك الإنسان لفكرة الموت ردحا طويلا من
 الزمن — كما هى الحال حتى وقتنا هذا — لدى كثير من القبائل ،
 وعدم تمييزه بين الموت والحياة ، وتغيله أنه نوم طويل يعيش
 المتوفى فى أثنائه عيشة الأحياء . ويقوم بأعماله المعتادة حتى
 بواجباته الزوجية (كما قام بها أوزيريس بعد موته فأنجب من
 زوجته إيزيس إبنتها حورس) . وأنه ينديقظ أحيانا فيزور
 الأحياء طيناً فى أثناء نومهم ، وشبها أو رؤيا فى أثناء اليقظة ،
 ويطلبهم بمحقوقه وأملاكه . ومن هنا نشأ الإيمان بالأحلام
 والأشباح ، وتقديم الأطعمة والملابس ، بل الخدم والزوجات
 للتوفين ، وعمليات السحر لإعادة الحياة إلى ما كان يحيط بهم فى
 كهوفهم ، لتهيئة أسباب الراحة والترف لهم ، بغية استرضائهم

والحيد بهم عن فكرة العودة ، بل يذهب بعض إلى القول بأن
ركام القبور (Tumulus) الذي تحول فيما بعد إلى «الشاهد» كان
الغرض من وضعه على القبور في أول الأمر زيادة الثقل على
الميت للحيلولة بينه وبين مغادرة قبره .



أركان العمل السحري الثلاثة

العمل السحري، على ثلاثة أركان هي : التعاويذ
والطقوس ، وشخصية الساحر .

١ — التمويذة :

هي الصيغة اللفظية التي يتلوها سادن السحر عند القيام بخدمته .
وكيفما كان شأنها لدى بدء استعمالها فإنها — منذ عهد التاريخ
بها — اتصفت دائماً بالجلود وعدم القابلية للتحويل ، وقد عدّها
أهم أركان السحر ومركز القوة الفعالة فيه ؛ وتلك القوة منحصرة
في صيغتها اللفظية ، تنطلق معها من فم المتكلم غير مبالية بشخصيته
ولا بالمعوذ له ، سالكة طريقاً ذاتية لا عودة منها حتى بإرادة
قائلها ، وهاتان الخاصتان — أى عدم ارتباط التمويذة بالأشخاص ،
أو بنية القائل لها واستحالة تغيير خط سيرها إذا ما انطلقت ، —
جليستان : الأولى في رواية يعقوب ، الذي يارك ابنه الأصغر
إسحق وهو يتوهم مباركة بكره ، ولم يسهه بعد ذلك العدول عنها ،
والثانية في نبوءة أشعيا (١١ : ٥٥) « ... كلتي التي تخرج من
فى لا ترجع إلى فارغة بل تعمل ماسررت به وتبتهج فيما أرسلت له » .

والغالب أن إسناد قوة ذاتية للألفاظ نشأ عندما بدأ الإنسان يتكلم ، ففطن إلى قوة الأصوات الجديدة وقيمة نغمة النطق ، وهابها في غيره ، مثال ذلك أن لعنة المجهول ما تزال مرهوبة ، وأنتا ما زلنا نقتبط بدعائه لنا . وقديماً كان الملوك يهابون الشعراء . وخاصة من برع منهم في الهجاء وثلم العرض .

وقد عم الاعتقاد — لدى القدماء — بأن الكلمة لها حياة خاصة ، والكلمة التي تصور المدلول أصبحت بالقياس في الفكر البدائي هي المدلول ذاته ، ترى السومريين يصفون عليها شخصية معنوية ويسيرة بين الذات والصفة . ونرى البابليين يقولون إنه لا وجود لغير مسمى ، ويعبرون عن حدث حصل قبل خلق السماء والأرض بأنه حدث والأرض والسماء لم يسميا بعد . وبالتالي فإن معرفة اسم الشخص تعد امتلاكاً له وتكسب سلطاناً عليه (إنى أعرف اسمك ... أأست أعرف اسمك ؟) ولذا فقد كان اسم فرعون يكتُم ولا تذكر في المتون إلا ألقابه ، بل اسم الله تعالى كان محرماً على اليهود ذكره أو معرفته ، وقد جاء في « العهد القديم » أن الله تعالى أخفى اسمه عن إبراهيم وإسحق ويعقوب ولم يذكره إلا للموسى : « وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني إله القادر على كل شيء » ، وأما باسمي (يهوه) فلم أعرف عندهم (سفر الخروج :

(٣٢٦) . ومن مظاهر قوة الإسم أن ذكره كان — لدى قدماء المصريين — يضمن الحياة ، وترديده يعيدها . فقد ورد في رسالة شستريتي السادسة : إن اسماً يذكر على لسان بشر مفيد في القبر ، إن الإسم هو الذى يحيى ، وإعادة أسماء الموتى على ألسن الأحياء يضمن لهم استمرار الحياة .

وقد تأثرت فلسفة أفلاطون بمثل هذه النظرة فأعادت للكلمة (Logos) أهمية قصوى انعكست في مستهل رسالة يوحنا : « فى البدء كانت الكلمة ، والكلمة كانت عند الله ، وكانت الكلمة الله ، . كما أن اللغة استعادت هذه النظرة في كثير من الأحوال . يسهل علينا إذاً أن نتفهم كيف أسندت إلى كلمة الإله وإلى إسمه قوة فذة تقهر كل مقاومة ، إذ أن الإله — تبعاً لتلك الفكرة — موجود فعلاً في كلمته وفي إسمه ، وأن كلمته واسمه هما إياه ، وأن من يتكلم باسم الإله يصبح هو الإله .

هذا هو السر الذى جعل لمنطوق التعاويذ والصلوات قيمة تعلو مدلولها ، والذى أوجب الالتزام بشكلها وبطريقة ترتيها الموروثين دون أى انحراف ، إذ أن أقل تعديل فيها كان يغير من طبيعتها ويفقد فاعليتها ، بل كان يودى — تبعاً لعقائد بعض

القبائل — بحياة من أخطأ لملقائها ، ولذا فإن منطوق التعاويذ لم يتغير على مر القرون ، بل إن بعضها في مصر كان ما يزال يلقى بلغة أجنبية (في بردى لندن مثلاً) لأنها كانت دخيلة ، أو لأنها كانت تستخدم ضد أرواح أجنبية . والسبب نفسه فإنها — عموماً — احتفظت بتراكيب لفظية عتيقة وبألفاظ مهجورة ؛ وذلك القدم في التركيب ، والغرابة في التعبير ، مع السجع والتوقيع يكسوان التعاويذ ثوباً من الشاعرية والغموض يزيد في روعتها وفي قوة إثارتها .

وكان مدلول التمويذة يشير دائماً إلى الغاية المطلوبة، إما بالتشبيه أو بالاستعارة، أو بتوافق الأصوات أو ببرد حوادث مماثلة من توارىخ الآلهة .

وكثيراً ما كانت تخضع تلاوتها لتقاليد مستمدة من خواص الأرقام السحرية (٣ ، ٤ ، ٧) أو كانت تقرأ بالتسليم على العقد المربوطة على الحبال أو الأقنعة ، أو باستعمال النيذ أو الزيوت أو الماء المقدس ، أو بطقوس أخرى .

٢ — مهرلات السحر :

هي حركات معينة يقوم بها الساحر أو الكاهن في أثناء عمله ،

وهي عادة تصحب تلاوة التعاويذ وتعزها ، وإن كانت في بعض الأحيان تشكل الركن الأساسي في السحر . وهي مبنية على الفياس ، أى على العقيدة بأن قوة الساحر أو المانا ، تحول الشبه إلى حقيقة . وهي منوعة ، فإما أن تستخدم الحركة وسيلة للتمويذة لتنقلها إلى المعوذة ، وإما أن تقوم بلون من التمثيل يتناول الأمر المطلوب لضمان حصوله فعلاً ، كأن يقلد الساحر حركة الماء المتموجة بيده ، أو ينفخ ليرمز عن الهواء ... أو يمثل قصة من تاريخ الآلهة تتصل بموضوع العمل ، أو معركة مع القوى الشريرة تنتهى بقهرها ... الخ ...

وكانوا يستعينون ببعض المواد في أثناء هذا الدور ، كأن يصب الماء لإسقاط المطر ، أو تحرق الصور لإلحاق الأذى بأحبابها . وكانت تلك المواد تختار لخواصها الطبيعية ، أو لفوائد مزعومة استنتجت بالقياس الرمزي من صفاتها أو أصولها أو شكلها . ومن تلك المواد عقاقير قوية تحدث انفعالات في نفس من يستعملها كالسوسة والتخييلات البصرية ، وتهيجات وتغيرات في الشخصية تشبه الهستيريا ، يؤولها المشاهدون بأنها نتيجة لحلول القوى أو الأرواح بالساحر ، وكان تناول تلك المواد محرماً في كثير من الأحيان على الجمهور ، بل كانت معرفتها وطرق تحضيرها تحاط بالسرية التامة .

ولارتباط حركات السحر بفاعليتها ، وبالعقيدة التي نشأت
بأن الأمانة في إجرائها هي العامل المقيد للقوى التي يبتنى
تسخيرها ، أحبطت تلك الإجراءات بالذمة والجمود اللذين كانا
يحددان كيفية تلاوة التعاويذ .

٣ — شخصية الساهر :

ومع أن قوة السحر كانت في متناول كل من عرف أساليبه ،
وأن فاعليته كانت مبنية على صورته الشكلية فقط . فإنه كان يعطى
أهمية كبيرة لشخصية القائم به ، وذلك نظرا لخطورة القوى التي
كان يسيطر عليها ، والتي كانت تنصبه سلطانا على السلطان . ولذا
فإن اختياره كان يحتاج إلى توثيق ، وكان يخضع لقواعد دقيقة ،
فكان يختار المرشح منذ طفولته على أساس أن يكون من سلالة
الساهر ، أو أن تقترن أفلاك مناسبة ساعة ميلاده ، أو أن يحمل
بعض الشارات على جسمه ، أو أن يصاب بأحد الأمراض المقدسة :
كالصرع أو الهستيريا ، أو أن تكون أعجوبة قد وقعت له في حياته ،
أو أن يكون موضوع حلم . الخ . ولا يزال رهبان التبت
يأخذون بمثل هذه الاعتبارات في انتخاب أئمتهم .

على أن المرشح كان يرثي تربية خاصة ، معزولا عن بقية

القبيلة ، محاطا بجواجز من المحرمات التي تتناول طعامه وهندامه وعلاقاته الجنسية ، ومن الالتزامات التي كانت في بعض الحضارات تصل إلى حد تحريم كشف وجهه وإلزامه ارتداء قناع. وقد كان عقاب مخالفة تلك الفروض صارماً يودى بقوى الساحر الروحية وأحيانا بحياته .

وليس ثمة شك في أن تلك العزلة القاسية كان ينفرد بها الساحر، وتلك الفروض الجبارة التي كان يدفعها ثمنا لما وهب به من مقدرة، كانت تقوّى ملكاته ، وتلهب حواسه ، وتزيد في عقيدته العميقة بأنه امتاز عن إخوته ، وتدعم إيمان هؤلاء بأن الآلهة اختصته ببهات فريدة .


ولحالة الساحر النفسية وزن يعدل حالته الجسمية ، فقد كان يمتاز بحساسية مرهفة تقرب من المستريا .. ولما لم تكن التعويذة في أول أمرها — حسب اعتقاد البعض — إلا صهام آمن للرجبة الشديدة الكامنة في نفس المتلفظ بها ، تخيل له تحقيق رغبته ، وأن الحركة السحرية لم يكن أساسها إلا إيهام النفس بحصول الحدث المرغوب عن طريق القيام بمثله ، فإن العمل السحري اتصف بالعنف في اللفظ والفعل ، وكان يشعر من يأتي به أنه تحرر من قوة طاغية، بينما ما يزال من حوله يرضخ لها ، كما يتحرر

(المربوح) في الزار وقتيا من الوسواس المسيطر عليه والذي
يخاله من عمل العفاريث .

ولذا فقد كان الساحر — في أثناء عملياته — يشد أعصابه
بالإيماء والعقاقير حتى تصل إلى درجة من الهياج والتوتر ،
فتصدر عنه حركات زائفة وألفاظ عنيفة قد لا يكون لها معنى ،
ويمثل دوره تمثيلا جائرا وحشيا ، كما يمثل اليوم (الكودية)
ورواد أزار الملبسون (والمربوحون) ومن إليهم .



هل للسحر قيمة اجتماعية

لا نستغرب استمرار الإيمان بأثر السحر وبقاء بعض
 مراسم  — على الرغم من ازدهار حضارتنا المبنية
 على نزعة تجريدية عقلية دقيقة . ولهذا البقاء عدة أسباب مهمة
 تستمد غذاءها من جذور متغلغلة في صميم قلوبنا في نواح منها ،
 منعزلة تماما عن تلك التي يتحكم فيها العقل والمنطق . وهذا العزل
 هو سبب التناقض الظاهر في وجود ضريين مختلفين من التفكير
 يسيران جنباً إلى جنب في العصر نفسه ، باق في الذهن نفسه .
 ذلك أن الإنسان واجه على مر التاريخ نوعين مختلفين من الظروف ،
 أحدهما قابل للتسكن والاستقرار ، كالأجواء ومواسم الزراعة
 والفيضان وتأثير أنواع الطعام والشراب وكل العوامل الخارجية
 كجروح السيوف والرماح والفؤوس ، وثانيهما لم يَرَ له سبباً
 باديً ذي بدء — كالرعد والقحط والأوبئة والسكتة ونوبات
 الصرع والزلازل — فلم يسعه إخضاعها لقانون ، واقتضى لها
 أسباباً خفية . فواجه النوع الأول بالوسائل التي أملت عليها عليه
 خبرته واستنتجها عقله المنطقي ، ثم أخضع تلك الوسائل
 إلى التصحيح بالملاحظة والتجربة ، وأضاف إليها الملاحظات

على مر الزمن ، وزادها دقة في الوصف وتعمقاً في التحليل ؛
أما الثانية فظلت عالمًا مغلقاً مبنياً على الخبرة التصوفية لا على
البرهان التجريبي أو المنطق وعالجها بما كانت توحيه إليه عقائده
وأحاسيسه ، فتقدمت أولى الوسيلتين وكوّنت العلم ، بينما انجمدت
الثانية وأصبحت ما نسميه بالسحر .

وقد ساعدت على رسوخ العقيدة بالسحر أسباب أخرى
لا تقل أهمية عن الأولى ، وهي تتصل بشخصية الساحر وبطبيعة
الإنسان ، وبالقواعد التي كان يحجبها المجتمع البدائي منه .
أما الساحر فكان يمتاز دائماً بقسط كبير من الخلق الاجتماعي
والدهاء السياسي والمهارة في انتهاز الفرص للقيام بأعماله ، كأن
يسند فترة القحط إلى غضب الآلهة ، ويفرض ما يفرضه على الشعب
لإرضائها ، ثم لا يقوم بالطقوس التي يزعم إسقاط المطر بها
إلا عندما يجد أن حالة الجو تنبئ به .

وفيما يخص طبيعة الإنسان فإنها تنوق دائماً إلى العجائب ،
وتحب التوغل فيما وراء الطبيعة ، وتؤثر عند النظر في قضية
ما أن تأخذ بعوامل روحانية مُغفلةً الأسباب المادية ،
وتتمسك بحالات فردية آتت السحر فيها بنتيجة مردها إلى الصدقة ،
وتنسى آلاف الحالات التي منى فيها بالإخفاق ، هذا بالإضافة

إلى حاجة الإنسان الدائمة إلى عون من فوق ، والإيمان بتوفر هذا العون هو أساس الأديان ، كما أن الشك فيه أدى إلى فلسفة اليأس والتشاؤم التي تجمعت أخيراً في المدرسة الوجودية .

وهذا الإيمان بالسكر أكسبه قوة اجتماعية قصوى ، إذ أن المؤمن به يعتقد أنه يمكنه ، إما بنفسه أو بالالتجاء إلى وسيط — هو الساحر أو « الشيخة » ، أو الكودية ، — فرض إرادته على تلك القوى المخيفة التي تحوم حوله ، الأمر الذي من شأنه إزالة القلق الكوني وتحقيق اتزان في الحياة العاطفية ، وهذا هو أساس النزعة الطقسية (ritualism) . المغرسة — كثيراً أو قليلاً — في كل منا ، والتي نرغبنا — برغم أنقنا — على إجراء بعض الحركات (الأنومانيسكية) كالسبيح أو إشعال السجارة ، أو التلطف ببعض التوسلات عند الإقدام على أى عمل ، تخفيفاً لتوتر أعصابنا .

وكما يقاس السكر بدوافعه ، يقاس أيضاً بثماره . فإن السكر في العالم القديم حل محل قوانيننا ولوائحنا الحالية ، بفرض سنن سنمها حكماء القبيلة ، فوضع للطعام والشراب والنشاط الزراعي ومواسم القنص ، وتربية الأولاد .. الخ .. قوانين ، مع فارق

هام هو أنه اعتمد على الرعب من الأرواح ، بينما نرتكن اليوم على الوعي الاجتماعى .

ولاشك فى أن بعض الفروض والتحريمات كانت مبنية فى كثير من الأحوال على الخبرة والتجربة ، ولكنها فى حالات أخرى كان ضررها أكبر من نفعها ، وربما رجع هذا إلى فارق آخر بين السحر ، وهو جامد لا يقبل التغيير ، وبين العلم الذى تتغير أسسه كلما قام البرهان على خطئها .

بقى أن نقول إن هذا الحكم على السحر يبدو أفسى مما يجب ، لوجود ظاهرات لاشك فيها ، يستعصى درجها فيما هو معروف للعلم ، وتلك الظاهرات فُسرَّت بأنها نتيجة : إما للتلفيق والدجل ، وإما لتخيلات وهمية مردها إلى الإيحاء ، وإما لأفعال قوى طبيعية ما نزال نجهل كمها ومداهها .

وتلك القوى — التى تأتى بنتائج تبدو كأنها من ثمار عوامل متسمة بالذكاء وحرية الإرادة — هى موضوع علم المتابسكولوجيا أو علم « ما وراء النفس » الذى يدرس قضاياها بالطرق الإحصائية والعلمية نفسها التى تتوخاها العلوم التجريبية المعهودة . وقد أوصت الأديان السماوية بالابتعاد عن تلك الأعمال ، وأستندتها إلى أشخاص وأرواح شريرة أو إلى الشياطين التى

لا يمكن للإنسان العادى تمييزها عن الأرواح الخبيثة ، وقالت بأن تلك الأرواح قد تسخر لإسقام السليم أو لإلحاق الأذى بشخصه كما قالت إنه يمكن — إذا ما عرفت تلك الشياطين — طردها بتسليط من هو أقوى منها عليها ، واعتبرت تلك الأفعال كفرًا يعاقب عليه ، وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً ، (من سورة الجن) ، وقالت إن أنجع الوسائل لمحاربتها هى الإيمان بالله والاستعاذة به . وربما كان هذا تعريفاً أسامياً للسحر يميزه عن الدين ، وهو أن السحر يوسط الأرواح المؤذية ، بينما الدين يتضرع إلى الله تعالى ويتشفع بأوليائه ، فهو — دون مزية — أقوى منه ويفوقه مقدرةً ، كما قضى ما صنعه موسى على سحر فرعون .



الطب اللاهوتي

اختلافه عن السحر وشبهه به .
 أساليب الطب اللاهوتي عن أساليب السحر في **أصلها** الجوهر وإن شابهتها في الشكل . ذلك أن السحر يدعى سلطاناً مباشراً على قوى العالم ، بينما أن الطب اللاهوتي يلجأ إلى تلك القوى المجسمة في آئته متوسلاً إليها أن تحقق مطالبه .
 ولكن الطرق التي اتبعها الطب اللاهوتي كانت ، أحياناً ، شديدة الشبه بتلك التي يمارسها الساحر قبله ، وهذا لأسباب عدة : منها أن الطب اللاهوتي انحدر عن الطب السحري انحذاراً طبيعياً أدى إلى مسابقة المذاهب الجسدانية للعقائد العتيقة ردحاً طويلاً من الزمن ، بل إلى بقاء شوائب من السحر في الأديان التي تبعته ، وإلى العقيدة في فاعلية الأسلوبين ، بل إلى احتفاظ الكهنة بألقابهم السحرية إلى جانب ألقابهم الكهنية .

وما أكد فاعلية السحر عند جمهرة الناس أن الكتب السماوية ذكرته وزخرت بقصص منه . فقصص ذكرت أن موسى مارسه ، وتحدثت عن شجرة الخلد التي كانت - حسب تفسيرها اللفظي في التوراة - تكسب آكلي ثمارها الخلود

كان هذه الهبة مرتبطة بالثمار فلم يكن بد من أن يقص الله آدم من الجنة خوفاً من أن يأكلها فيصبح مثله (التوراة)

وقد استغل الكهنة تلك الملابس ، وشجعوا الناس على الإيمان بتلك العقائد ، وكنتموا أسرار طقوسه رغبة منهم في احتكار طرائق التوصل إلى الآلهة ، واقتبسوا أساليبه في خدمتهم الدينية ، مما جعل التفرقة بين الدين والسحر من الصعوبة يمكن ، لأنهما متداخلان كل منهما في الآخر . وقد حاول الكثيرون تحديد الفاصل بينهما ، فقال البعض إن الدين هو العقيدة ، والسحر هو الطقس ، إلا أن ديناً لا يرسم لمعتقديه خط السير في الحياة لا يسمى ديناً ولا يزيد على كونه نظرية فلسفية خالصة . وقال البعض الآخر إن الإنسان — في بدء إيمانه بالآلهة — كان يسلك إحدى طريقين : الأولى محاولة الإستعانة بهم كان يستعين بهم الساحر ، وهذا النوع من الخدمة اللاهوتية ، الذي لم يختلف عن السحر لا في جوهره ولا في شكله ، هو الذي ساد الفكر الديني في عصر الفراعنة ، وقد اكتسبت الطقوس الخاصة بهذا النوع من العبادة جمود الوسائل السحرية نفسها ، واصطبحت تلك الحركات وذلك الارتباط بالأرقام .. الخ .. أما الطريقة الثانية فجوهرها قبول سلطان الآلهة ثم مساومتهم بقبول الفروض

الخلقية وواجبات العبادة ثمنا لما يطلب منهم من حماية ورعاية .
وربما كان هذا الاختلاف في الموقف هو الفاصل الحقيقي بين
السحر والدين .

أما التعريف الثالث — الذى ذكرناه — وهو أن السحر
يستمد تأثيره من قوى مؤذية ، بينما الدين يتوسل إلى الله
ويستشفع بأوليائه ، فإنه ينقل كل الأديان الوثنية إلى حظيرة
السحر ، وهذا ما لا يمكن قبوله ، لأن بعضها ارتفع إلى منسوب
روحاني عال ، ولم ير في الأصنام إلا رموزا لمعان شعرت بوجودها
وإن لم تقدر لها المعرفة الكاملة .

اضمحوط الآلهة بالسحر في الطب الفرعونى

عاصرت مصر الفرعونية مرحلة عبادة الآلهة ، وإن نظر
المثقفون من قدماء المصريين إلى الأصنام كصور لمعان أكثر
سمواً ، أو حسبوها رموزاً لأركان الكون ، وإن جرت من
جانبيهم محاولات جريئة ترمى إلى التوحيد ، فإن الشعب ظل
يعبد عدداً لا حصر له من الآلهة الثانوية . ولذا فإن أغلب
السحر والطب السحري في مصر القديمة كان من النوع
اللاهوتى أو الكهنى .

إلا ان المصريين لم يفرّدوا للطب إلهاً ، كما فعل الإغريق
 بإسقليبيوس ، وإن ذكروا بعض الآلهة في سيرة الأمراض
 والأطباء ، وردّ هذا في سياق الكلام عنهم ، على أنه جزء
 يسير من مجموعة أساطيرهم وأعمالهم ، لا يرتبط بصفاتهم العامة
 أو باختصاصاتهم الرئيسة إلا عن طريق الصدفة أو القياس .

وقد وضعوا على رأس الآلهة «تحت» ، وسموه «القياس» -
 أى الذى يقيس - إذ أنهم عزّوا إليه اختراع العلوم المضبوطة
 والرياضة والأدب والفنون والعلوم السرية وأسس الدين ،
 ونسبوا إليه تأليف الكتب المقدسة (ومنها الأجزاء الاثنان
 والأربعون التى ذكرها كليمان الإسكندري) ، واختراع الصيغ
 السحرية الشافية ؛ وكان فى السحر لا يقل تضلعاً عن إيزيس ذاتها ،
 وقد صوره على شكل طير أبيس (أبو قردان) أو على شكل
 إنسان رأس « إيبس » ، مكلل بهلال القمر وقرص الشمس ،
 ممسك بقرع نخلة أو بالقلم واللوح ، وقال عنه الإغريق فيما
 بعد إنه هو ذاته إلههم «هرميس» مثلك القوى .

ومن الاختراعات التى نسبوها إليه الحقنة الشرجية ، لزعيمهم أن طير
 الإيبس يتجه إلى الشواطىء ، ويملاً منقاره ماءً ، ثم يدخله فى الشرج
 فيحقن فيه الماء لغسله ، والمرجح أن هذه الملاحظة غير صحيحة .

أما إيزيس مثال الأنوثة والأمومة ، فإنها بعد أن قتل
« سيث » زوجها « أوزيريس » وأخفى جسده ، كابدت متاعب
مبرحة بحثا عنه بمساعدة أختها نفثيس حتى عثرت عليه في « بيلوس »
في لبنان ، وأنجبت منه طفلا ، وبما أن الرمزية المصرية كانت تعد
كل متوفٍّ أوزيريس ، فإنهم كانوا يتوسلون بها لإعادة الصحة
إلى المرضى ، وقد مثلت في أسطورة « رع » دور الساحرة . وسميت
أيضا بالساحرة الكبرى .

وبالمثل فإن سيث قاتل أخيه كان رمزا لكل روح شريرة ،
ونظر إليه كمنشر الأمراض والأوبئة .

ومن التطورات العجيبة في التفكير الديني أن « سخمت » —
ذات رأس اللبؤة المكلل بالشمس والكوبرا ، الإلهة المحبة للدم ،
هادمة الجنس البشري في أسطورة إبادة البشر ، وزوجة « بتاح » ،
وأم « نفر توم » و « إمحوتب » فيما بعد — تحولت في نظرهم فأصبحت
إلهة لآلام البشر ، ومثلت على هذه الصورة على جدران من معبد
« ساحورع » الجزى (الأسرة الخامسة) في أبي صير ، وأصبحت
تلك الصورة التي اشتهرت بصنع المعجزات موضع عبادة شعبية .
وانتشرت عبادة « سخمت » وأسست لها المصليات في المعابد في مصر
بأجمعها في وقت مبكر وقام بشعائرها كهنوت منظم (أو ابو) يتصل

بالمرضى وله دستور له الخاص ، ويعمل وسيطا بين جمهرة طلاب الشفاء وبين الآلهة ، مجردا عن أى اختصاص طبي بالمعنى الفنى للكلمة ، إلا أن الجمهور — بعد وقت ما — نسب إليه قوى «سخت» ، الشافية ومعجزاتها ، فقام الكهنة عندئذ بشفاء المرضى بوحى مباشر من الإلهة ، وكانوا ممن يعرفون النبض .

وهناك — غير أولئك — أشخاص جمعوا بين صفتي الطبيب وكاهن سخت ، منهم : ون — نقر (أو نوفرير) ، كاهن سخت والطبيب المفتش ، و (إيرى نختى) ، رئيس الكهنة وطبيب السراى ، و (هير يشفخت) رئيس كهنة سخت ، ورئيس السحرة وطبيب الملك .

وفى أثناء هذا التطور انتظم كهنوت سخت على شكل هرمى ، فنجد من بينهم كهنة سخت (أو أبو سخت) ، ثم رؤساء هؤلاء الكهنة وبينهم اثنان اهتموا فى مؤامرة ضد رمسيس الثالث ، وفوقهم رئيس كهنة سخت فى مصر قاطبة ، مثل « سوم توتفخت » الذى نال بمهارته الطبية حظوة عدد من الملوك الذين حكموا مصر فى هذا الوقت ، وكان قد خلف خاله رئيس كهنة سخت ، فى الجنوب والشمال فى هذا المنصب .

أما أطباء الرمد فكانوا فى رعاية تحوت الذى شفى حوريس

بعد أن مزقه سيث الشرير إلى أربع وستين قطعة ، وكذلك في رعاية آمون الذى كان يلقب أحياناً بالطبيب الذى يشفى العيون بغير دواء ، أو « آمون مفتح العينين » ، أو « شافى الحول » .

ولكن الإله الذى اختص بأمراض العيون كان (دواو) . وكان مركز عبادته في عين شمس الحالية (إيونو) وكانت صورته عليها الشارة التى تميزه . وقد ظهرت تلك الشارة كذلك في الكتابة الهيروغليفية لألقاب بعض كهنته ، مثلاً : « نى عنخ دواو » (الحياة ملك لنواو) وكانت كثرة أطباء الرمد من الكهنة المتصلين به ، أمثال (ميدونقرى) . إلا أن حوريس انتقل في العصور المتأخرة من مركزه في دمنهور إلى إيونو ، فحل محل « دواو » وأصبح إله أمراض العيون بدلاً منه ، ثم انتقل حورس من عين شمس عبر النيل إلى ليتوبوليس (وهى أوسيم الحالية) وسُمى هناك (حوريس مختبئ إيرتى) أى حوريس صاحب الوجه ذى العينين .

والظاهر أن العلاقة الوطيدة بين « دواو » و« حورس » في عين شمس وجارهم (مختبئ إيرتى) ، والمتعلقة بعلاج العيون ، مبنية على علاقة وردت في الأساطير ، حيث روى أن حورس أعطى

عينا من البلور الصخري (كوارتز) إلى هذا الإله عندما فقد بصره .
ورأوا في (نيث) حامية للوالدات والأطباء ، وكانوا
يصورونها دائماً في صورهم للولادة معينة للنساء في أثنائها ، وكانت
تعبد في معبد سايس وتمثل باللبوة ، وكان في مقدورها أن تنفث
هواء الطاعون من الصحراء ، وأن تبعد الشياطين في أثناء النوم .
كان المرضى إذن يتوسلون إلى (آمون) أو (سخمت)
أو (من) أو غيرهم من الآلهة دون أن يشعروا بالحاجة إلى إله
للطب . ولكن الشعب في عهد البطالمة ، رفع إلى هذه المرتبة رجلاً
اشتهر منذ أقدم العصور ، وهو إيمحوتب ، الذي شيد أول هرم ،
والذي كان — قبل الميلاد بثلاثين قرناً — مستشاراً سياسياً
ومهندساً معمارياً ، ولعله كان طبيباً لأحد ملوك الأسرة الثالثة
(زوسير) ، والذي عده الشعب بطلاً منذ القرن السادس ق.م .
ثم ألصقه الإغريق تحت اسم ديموئيس ، وقالوا إنه إسقليبيوس .

نظرة المصريين المزروعة إلى المرض والطب :

سأرت نظرة المصريين إلى المرض الأزواج بين النزعتين
الدينية والتجريدية الغريزتين في طبيعتهم ، فقد كانوا يؤمنون بأن
الجسم يولد صحيحاً ، ولا يمرض ولا يموت إلا نتيجة تأثير خارج

عنه. فإذا رأوا للرض سبباً، مثل الجروح أو الديدان أو الإكثار من الطعام، عرفوه وعالجوه بطرق تميزها الخبرة ودقة الملاحظة، وتبتعد كل البعد عن الشعوذة والسحر، وإن أشركوها بالطرق الأخرى في كثير من الأحوال، لأنها لا تختلف في جوهرها عن طرقنا العلمية الحديثة؛ أما إذا كان سبب المرض غير مرئي فإنهم كانوا ينسبون إلى عوامل خفية. ولجهلهم بالميكروبات أو بالاستكشافات الكيماوية الحديثة لم يجدوا سبباً غير نسبتها إلى أسباب خفية، إذ كانت في فطرتهم الموروثة من قديم الزمن انتقام الموتى أو عمل الأرواح الشريرة أو عقاب الآلهة، فكان يتحتم عليهم محاربتها بالوسائل التي تلائمها. وهي التوسل بروح أقوى أو الالتجاء إلى أعمال السحر المبنية على المبادئ التي وصفناها فيما سبق.

وسائل الطب الرومانى :

وكانت وسائلهم في هذا مختلفة الأنواع، منها الأساليب السحرية المحضة، كالأطاسم والأحجية والتعاويذ واستعمال المواد الغريبة، كشعر التيس وروث فرس البحر والتمساح... الخ، وهذا إما دلالات تلك المواد

الرمزية ، أو بغية نقل المرض أو الصحة من عضو المريض إلى عضو حيوان أو بالعكس . ومن أمثلة نقل المرض أن توضع عين الخنزير في أذن المكفوف لإعادة البصر إليه مع تلاوة هذه التعويذة : ذهبت للبحث عن (هذا) الذي ينبغي وضعه محل (ذاك) لاستبدال ألم فادح ، (إبرس ٢٥٦) . والمفروض أن هذا الإجراء يستبدل عين الكفيف بعين الخنزير وهي عين سليمة . ومن الأمثلة الأخرى ذلك نصف الرأس المتألم برأس سمك (نار) مقل في الزيت لتقل الألم من رأس المريض إلى رأس السمك .. إلا أننا قلنا نجد تلك الأساليب مستعملة بمفردها ، بل تقابلها في العادة أساليب روحانية أو لاهوتية .

وتتخذ الأساليب اللاهوتية أحد الأشكال الآتية :

(١) فقد تنظر إلى المرض على أنه من فعل روح شريرة دخلت الجسم ، وفي هذه الحال يركز السحر عليها إما بالأمر ، حين يقال لها مثلاً : د أخرجي يا كاسرة العظام ، يامتسللة إلى الشرايين ، ، أو حين يقال للبرص د أخرج مع البصاق ، أخرج مع التقيء ... ، أو بادعاء عدم الإذعان إلى الروح الضارة : د أحضرت لتقيل هذا الطفل ؟ .. لا ، فلن أرخص

لك بتميمه .. ، ، « أنت لإصابته بضر ؟ .. لا ، فلن أيسح لك بأن تنزل به ضرا .. ، « أأقبلت لتأخذ معك ؟ .. لا . فلن آذن لك بإصطحابه .. ، « إني أحضرت لك دواء من العسل وهذا ما يأتيك بالشر ، ومن البصل وهذا ما يأتيك بالضر .. عسل حلو المذاق للأحياء ولكنه مرّ للاموات ، ، أو بذكر اسم المرض كأن يقال « إني أعرف اسمك . ألسأ أعرف اسمك ؟ ، وكانت معرفة الأسماء تمنح لمن يعرفها قوة التحكم على أصحابها كما رأينا من قبل .. أو بالتحايل إذا شك الساحر في معرفته لاسم المرض فيصيح : « أنت خادم ... فلتخرج في القى ... أنت نبيل ؟ فلتسرب في البول .. أو بتهديد الروح المؤذنة بالشر أو الأذى : « أيتها الروح — أذكرا كنت أو أنثى — إختفي ياساكنة لحي هذا . أخرجي من لحي دنا .. أخرجي من أعضائي هذه .. لقد أحضرت لك هذه الفضلات لتأكلها .. فاحترسى ياخفية واهربى .. ، أو بادعاء الصحة والمناعة عن المرض كأن يقال : « إني سليم .. كيف أصاب وأنا سليم البدن ؟ لقد شاهدت الكارثة الفادحة ولكنها لم تصبني بأذى ، أنا الذي خرجت من هذه الكارثة سليما معافى . »

(ب) وقد تكون تلك الأساليب مبنية على الالتجاء إلى الآلهة

لطلب تدخلها في الأمر ، إما بأن تطالب صراحة بطرد الأرواح الشريرة .. « السلام عليك يا حورس يا أيها الموجود في بلد المئات يا حاد القرنين ، يا بالغ الهدف ، إني قصدتك لأمدح جمالك .. ألا فلتقض على الشيطان الذي يمتلك جسدي ، أو بأن تنتحل ذات الإله كما ورد في التعويذة الآتية : « اغربوا يا شياطين المرض لن يصيبني الهواء .. إلتى حورس الذي يمضي في طريقه أمام سخمت .. أنا ابن بستيت الوحيد ، ولن أموت بسبك .. أو أن يمنح كل عضو من أعضاء المريض صفة إله من الآلهة .. « إن قمة رأسك هي رع ، وقفاك هو أوزيريس ، أذنك حيتان ، ذراعك حورس ، سرتك نجم الصباح ، وإنما كل عضو فيه إله ، وكل إله يحمي اسمك ، وكل ما فيك .. « ونرى أهمية معرفة الاسم في الفقرة : « وكل إله يحمي اسمك ، . ولاغربة في منح كل عضو صفة إله ، فقد كانت هناك نظرية تشريحية سادت الفكر الطبي حتى القرون الوسطى ، تقول بأن لكل عضو علاقة بفلان وعنصر ومعدن ... الخ .. ومن العجيب أن أثر هذه الرمزية لا يزال باقيا حتى اليوم في أسماء أجزاء الجسم .. ومثال ذلك جبل الزهرة ، وبقرة أطلس ...

وإلى هذا فقد كانت هناك رقى تعتمد على روايات شفاء بعض

الآلهة التي وردت في الأساطير ، فتحاول إعادة أحداها ، أو تبني على القياس الزائف ، فمثلا لإيقاف نزف الحيض كان يقال : « أتى أنويس لينع النيل من دخول المعبد حتى يحمي من كان بداخله ، وفي ذلك تشبيه الحيض بفيضان النيل ؛ أو كالتعويذة التالية التي كانت تذكر على شكل حوار لعلاج الحروق : «الرسول: ابنك حوريس يحترق على الهضبة ، إيزيس : هل هناك ماء ؟ الرسول : لا يوجد هناك ماء — إيزيس : عندي ماء في فمي ونيل بين نخذي ، لقد حضرت لإطفاء النار ، وهذه التعويذة كانت تقرأ على مزيج من لبن امرأة أنجبت طفلا ذكرا ، وصمغ وشعر تيس يوضع على الحرق .

أما طرائق استعمال التعاويذ فكانت متباينة ، ففها ما كان يستخدم بمصاحبة علاج ، ومنها التي كانت تتلى في أثناء تحضير الدواء ، فتضيف إلى تأثيره ، أو تضيف على محتوياته صفة الدواء^(١).

(١) كانت الصيغة الآتية تتلى على صفراء سلفحة في أثناء صفها بالصلع لصنع مرهم يوضع على الجفن لعلاج العجاجة (إيرس ٣٢٠) ، « هناك ضوضاء في سماء الجنوب منذ غروب الليل ، وزوايح في سماء الشمال .. وقع كوم من الرؤوس المقطوعة في الماء .. من يستردها ؟ لقد استردتها .. وقد =

ومنها التي كانت تتلى على الشخص المعوِّذ ، أو على (حجاب) مكون من قماش أو خيط معقود أو ريش رخم أو شعر حيوان ... الخ ، وهذا الحجاب هو الذي كان يحمل قوة التعويذة فينقلها من الساحر إلى المريض ، دون استخدام دواء ما .
ومن الغريب أن الطبيب أو الساحر ، عند ما كان يرتل التعويذة ، كان يتكلم بلسان الإله نارة ، والساحر الآمرطورا ، والمريض أحيانا .

== أعدتها إلى أمكنتها .. لقد ربطت فقرات رقابكم .. لتبعدوا أذى الإله أو الميت أو الميتة ،

وجاء ذكر صفراء السمك في العهد القديم في قصة طويا (١١ ، ١٣ إلى ١٥) التي تروى أن ملكا أعطي طويا صفراء سمكة لإزالة السحاب الذي أظلم قعر أبيه

أقدم كتب الطب في العالم لغاتف البردى الطبية

أفاق المصريون من السبات العميق الذي كان دفعهم إليه الهكسوس الجبهة . نشأت طبقة وسطى مثقفة في غضون الامبراطورية المتوسطة أنحت لها الفرص التي كانت حتى هذا الحين وقفاً على الكهنة والأمراء ، فبدأت تلبس في ماضي مصر المجيد أساساً لبناء مستقبل جدير بها . وقد انقضى على بناء الهرم الأكبر أكثر مما انقضى بين فتح الإسكندر لمصر ويومنا هذا ، ورحلت أسماء منا وإحوتب وخوفو إلى عالم الأساطير (بينما أن حرب طرواده ووقائع الإلياذة والإوديسة وقعت بعد ذلك العهد بمحوالى ثلاثة قرون) ، فعكف الفراعنة والأثرياء والمثقفون على جمع القراطيس القديمة ، وكاموا النساخين في د بيوت الحياة ، (التي سيأتى شرحها فيما بعد) بنقلها . وأغلب لغاتف البردى الطبية التي كشفت إلى اليوم ترجع إما إلى هذه النهضة الثانية — التي ازدهرت في غضون قوتونها وحضارتها من الهند إلى أواسط إفريقيا — وإما إلى العصر الذي سبقها بقليل .

أصول لفائف البردى الطبية وتاريخها

واستجلاء هذا الأمر من الصعوبة بمكان ، لأن اللفائف التي في أيدينا ليست إلا نسخاً متخلفة من أصول قديمة استنسخ الكتاب منها ما وقع في أيديهم ، كاملاً أو منقوصاً ، حتى الأجزاء الممزقة منها . مهما كان اختلاف المواضع التي تناولتها ، تبعاً على لفافة البردى نفسها حسب ورود الأجزاء إليهم .

ولا عجب ، فإن تلك اللفائف الأثرية كانت نادرة ، وقد أصابها من الدهر ما أصابها . على أن البردى الخام كان باهظ الثمن بل ربما كان يحسره البلاط ، وكان النساخون قليلاً عددهم ، مرتفعة أجورهم ، وهذا جعل المخطوطات عزيزة . وما يدرينا ؟ فربما كانت البردية الواحدة من تلك البرديات تحمل محل مكتبة كاملة ، وتضم في لفافة واحدة المؤلفات المختلفة التي أراد صاحبها اقتناءها .

ومن دلائل افتقار تلك اللفائف الى النظام في تصنيفها تباین محتويات كل منها في الجوهر والروح كما سنرى فيما بعد ، بل في الخط نفسه ، ولذا فإنه ينبغي لنا ألا نقرأ تلك اللفائف على أن كلا منها مؤلف قائم بذاته ، بل يجب أولاً إجراء عملية تحليل لأجزائها المتباينة ثم قياس تلك الأجزاء بأمثالها من اللفائف

الأخرى من حيث الخط واللغة والروح والموضوع، وضم القطع المتناظرة والمتكاملة ، لعلنا بهذه الطريقة نستقرئ ما كانت عليه النصوص الأصلية التي اقتبست منها تلك المؤلفات .

أما إن تلك البرديات منقولة عن نصوص أقدم منها فهذا مالا مراء فيه ، ويتضح من عبارات عديدة وردت فيها ترجع أجزاء منها إلى مؤلفات أقدم منها ، ومن قصص تذكر وجود لفائف سحيق في القدم ، وكثيراً ما تفخر اللفائف بعراقة أصلها ، إلا أن هذه النسبة في كثير من الحالات مختلفة تسير ذوق الجمهور لتقنعه بأصالة نصوصها . نرى مثال ذلك في لفافة لندن التي تقول عن نفسها إنها أنزلت من السماء بين ظلام دامس يضيئها شعاع من القمر ، وسط فناء معبد تمبليس ، فضمت إلى كنز خوفو (الذي عاش ألف سنة قبل تاريخ كتابتها) . ثم إنه ورد في مستهل باب التقيح من لفافة إبرس أنه منقول من مخطوط وجد تحت قدمي تمثال الإله أنوبيس في ليتوبوليس فنقل إلى الفرعون أوزافايس خامس فراعة الأسرة الأولى ، وأكدت لفافة برلين تلك الرواية .

وثبتت قدم أصول تلك اللفائف دراسة النصوص لغويا ، فإننا نلتقي فيها بكلمات كانت مهجورة وقت نسخها فاستدعت

تعريفاً من جانب النساخ ، أو عبارات مثل : « هنا وجد بمنزلاً ،
أو تعليقات شخصية مثل « جربت هذا ووجدته طيباً ، وهي
مكتوبة في السياق بيد النساخ أنفسهم ، وهذا لأن الأصل نقل
على علاقته بدون تمييز .

وقد أكدت روايات المؤرخين القدامى وجود موسوعات
قديمة في الطب تعد أقدم كتابات طبية في العالم . روى مانيتو الكاهن
بمعبد هليوبولس (٢٨٠ ق . م .) أن أثوتيس ابن منا موحد
الشرين ألف كتباً طبية ومنها مؤلف في التشريح ، وأن مكتبة
منف كانت تزخر بالكتب الطبية في عهد إخناتون (٣٠ قرن ق . م .)
وتحدث كليمان الإسكندري (القرن الثاني الميلادي) عن موسوعة
سرية في ٤٢ جزءاً في العلوم قاطبة منها ٦ في الطب كانت تحفظ
في المعابد .

إلا أن اللغائف على إطلاقها لا تمثل غير جزء من معلومات
أطباء الفراعنة . فهناك ما يدل على أن علماء مصر اتبعوا طريقة
التلقين الشفوي من الأب إلى الابن أو من الأستاذ إلى تلميذه
بعد درجة معينة من التعليم حرصاً على سرية ، مما يحمل على الظن
بأن معلوماتنا عن طبهم سوف تظل ناقصة لعدم تدوينه بأكمله .
كما أنه يستدل من عدة روايات ونصوص على أن تعليم الطب

كاد يعد سرّاً لا يفشى إلا لمن أقسموا اليمين ، روى إسترابون أن
السكرتنة أخفوا عن أفلاطون ودأودكسوس ، الجزء الأكبر من علمهم
حتى بعد أن أمضيا ثلاث عشرة سنة في مصر . ودون ابن أبي
أصبيعة رواية مماثلة بصدد زيارة فيثاغورس لمصر .

ومن مظاهر السرية التي أحاطت بتعليم الطب حتى عهد الإغريق
المزدهر فقرة جاءت في قسم أبقراط ، الذي كان يقسمه كل من
رغب في مزاولة الطب ، وقد حار فيها المفسرون وهى : «وأشرك
أولادى ، وأولاد المعلم لى ، والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط
وحلفوا بالناموس الطبى فى الوصايا والعلوم وسائر ما فى الصناعة
وأما غير هؤلاء فلا أفعل بهم ذلك» .

وتبدو هذه السرية كأنها من رواسب قرون سبقت أبقراط ،
وربما كانت من آثار الطقوس الفيثاغورية والأورفية وغيرهما
من المذاهب السرية السائدة ، ونحن نعلم ما يدين به فيثاغورس
وغيره من فلاسفة الإغريق للبصريين .

أهم اللغات الطبية :

وأهم لغات البردى التى كشفت اليوم هى ثمان ، أطلق عليها
أسماء مكتشفها أو ناشريها أو أصحابها أو المدن التى تحفظ فيها
أو القرى التى وجدت فيها . وتلك اللغات هى لغة إدوين سميث

والبرس وكاهون وهرست وبرلين وشستريتي ولندن وكارلبرج
وهناك مخطوطات ثانوية أخرى ، ولا شك أن أرض مصر
الضئينة تكسز في باطنها لفائف أخرى تَضِنُّ علينا بها إلى اليوم .
وكان يقوم بالنسخ كتاب محترفون ليسوا من الأطباء ، وإن
رجَّح «جرايو» أن كاتب لفافة «كاهون» طبيب ، وبما يحمل على
الظن أن بعضهم كان فعلا من الأطباء أن بعض الأطباء كان يحمل
بين ألقابه لقب «كاتب» ورسم على النقوش حاملا لرمز الكتاب ،
وهو الريشة ولوحة حاملة لإثنتين من أواني المداد .

ولكن الكاتب لم يكن مجرد خطاط في هذا العصر الذي كانت
فيه الكتابة علماً سرياً ، بل كان يجمع صفات الكاتب والأديب
والفيلسوف .

ويبدو أن عملية النسخ كانت تمارس في مؤسسات متخصصة
تشبه الأكاديميات الحالية ، و «موسيون» الإسكندرية في عهد
البطالمة ، وكانت تسمى «بيوت الحياة» ، ويلتقى فيها العلماء والفلاسفة
والأطباء وطلبة العلم في ندوات علمية ليتبادلوا الآراء فيها .

لفافة طاهور :

وأقدم لفافة وصلت إلينا هي لفافة كاهون التي اكتشفت
في مدينة اللاهون بالفيوم ، وترجع إلى عام ١٩٥٠ ق . م .

وقد دوّن على ظهرها حساب من عهد أمنمحات الثالث أحد
فراعنة المملكة الوسطى (١٨٤٠ - ١٧٩٢ ق.م.) ، وهي ليست
فقط أقدم اللغات في تاريخ نسخها ، بل إن أصلها يبدو أيضاً
أقدم من أصول اللغات الأخرى . وتتكون تلك اللغة من
قسم طبي وقسم بيطرى وقسم خاص بحل بعض المسائل الحسابية ،
كتبت كاللغات الأخرى بالهيراطيقية فيما عدا الجزء البيطرى
الذى كتب لأمر ما بالهيروغليفية ، وهو خط كان وفقاً على
الكتابات الدينية .

أما القسم الطبي ، وهو الذى يعنينا ، فيقع فى ثلاث صفحات ،
الأولى متآكلة ممزقة مشقة رمت فى عهد قديم بلصق قطع من
لغات بردية أخرى على ظهرها . والثانية فى وسطها ثقب كبير
وليس بها من الأسطر الكاملة إلا سبعة . والثالثة أعيد تكوينها
من ست وأربعين قطعة متناثرة .

وتضم الصفحتان الأوليان سبعة عشر تشخيصاً ووصفة
فى أمراض النساء ، ولم يوضع عنوان لكل تشخيص ، وفى شأن
العلاج لم يذكر أى إجراء جراحى ، وإنما اكتفى بوصف
العقاقير ، مثل الجعة واللبن والزيت والبلح وبعض الأعشاب ،
والعلاج بالغسيل والتبخير المهبلى .

وتحتوى هذه الصفحة الثالثة سبع عشرة علامة لتمييز العقيبات من بين النساء وللتكهن بجنس الجنين . مثال ذلك أنها تشير لمعرفة خصب السيدة بأن تجلس السيدة فوق بقايا جعة و . . ، فإذا تقيأت كانت خصبة ، ودل عدد مرات القيء على عدد الأولاد الذين سوف تلدهم . أما إذا لم تتقيأ فإن هذا يدل على أنها عقيم . والظاهر أن كل الإشارات الخاصة بمعرفة العقم مبنية على نظرية أن هناك اتصالاً بين المهبل وبقية الجسم في حالة الخصب ، وهذه النظرية هي التي أوحى ولا شك بالوصفة الأخرى ، وهى وضع لبوس من الثوم في المهبل ثم ملاحظة رائحته في الفم إذا كانت المرأة خصبة .

وقد استعمل الإغريق الطريقة نفسها ، ووصفها أبقراط في كتاب الفصول ، وليس ثمة شك في أنه اقتبسها منهم ، ثم توارثها أطباء الغرب ثم الإفرنج حتى استعملت في القرون الوسطى في أوروبا ، وهذه الطريقة قد تبدو لنا خيالية أو مبنية على تأملات مجردة ، إلا أن الأستاذ الدكتور أحمد عمار أبدى أنه يجب ألا نستبعدا دون أن نجرها ، فقد لاحظ أن الخصبات من النساء يشعرن في فمهن بطعم الثوم بعد حقن اللبودول في الرحم نتيجة لانتقال اليود الموجود في اللبودول من الرحم إلى التجويف البريتوني ، ومنه إلى الرئة إذا كان البوقان سالكين .

وتعتمد بعض الإشارات الخاصة بالولادة على حالة الثديين وقوامهما ، أو على لون البشرة والعينين . وما زال نرى في مصر الحوات يتحسسن ثديي زوجة الابن ويرقبن ظهور البقع السمراء على الوجه عند أول حدوث الحمل .

غير أن الكثير منها مبنى على استخدام التعاويذ وعلى طرق تمت إلى الدجل والشعوذة ، أكثر مما تتصل بالطب الحقيقي ، وهى في هذا شبيهة بما جاء في الموضوع نفسه على ظهر بردية برلين .

لغافة إبرسى :

هى أضخم لغافة اكتشفت إلى اليوم ، وصلت إلينا كاملة في ١٠٨ صفحات ، وتحمل تاريخ السنة التاسعة من حكم أمنوفيس الأول (١٥٥٠ ق . م) ، ولكنها كسائر اللغافات ليست مؤلفا ذا وحدة موضوعية ، بل إنها أشبه بلوحة الفسيفساء المستمدة قطاعاتها المختلفة الألوان من أجزاء مؤلفات أخرى متناثرة ، وهى تبدأ بديباجة سحرية . وكان الغرض من تلك الديباجة تقديم الحجة على أصالة الكتب الإلهية ، وعلى أن قوة السحر مستمدة من الإله الخير تحوت ، الذى كلفه رع بحماية البشر المتألم ، ثم استعمالها تعويذة شافية . وهذا الاتجاه الروحاني جلى في الأصول التى تنسب إليها بعض الوصفات ، فإن ستا منها ابتكرها الآلهة لأنفسهم . . ١٠

ويمكن تقسيم محتويات هذه اللقافة — التي يجدر بنا أن نسميها موسوعة — إلى ترسلات للآلهة وتعاويد ، ثم قسم خاص بالأمراض الباطنية وعلاجها ، وهو يُعد أول مؤلف في التاريخ يعالج سر الحياة بتأملات فلسفية غير دينية أو سحرية ، ولو أنه يرد أغلب الأمراض الباطنية إلى أسباب روحانية ، ثم تجيء وصفات لأمراض العيون وغيرها ، كأعراض الجلد ، والتجميل والزينة وإنماء الشعر ، ثم باب في أمراض الأطراف ، ويتناول الكسور والحروق ولم يعالج الجروح ، وهو شبيه بما جاء في لقافة إدوين سميث في هذا الصدد ، ثم وصفات مختلفة ودراسة لأمراض النساء وعلاجها يعيد الكثير بما جاء في لقافة كاهون ، ومؤلفان عن القلب والشرابين هما المؤلفان الوحيدان اللذان وصلا إلينا في علمي التشريح ووظائف الأعضاء ؛ ومؤلف في الجراحة اقتصر على الأورام والخراجات ولم يتناول الجروح ، وقد سمي (بكتاب الأورام) . وقد حوت هذه الموسوعة ٨٧٧ وصفاً ، بعضها في كيفية التشخيص ، وبعضها مقرون بالعلاج ، وبعضها إشارات علاجية .

ومن الأوصاف الإكلينيكية تعرّف إيبيل على خمسة عشر مرضاً ، منها التورم والاستسقاء والقيلة والجزام ، إلا أن علماء

اللغة لم يرضوا عن كل ترجماته وتفسيراته ، لأن الكثير منها لم يصبحها ما يبررها ، وأذكر على سبيل المثال بعض الأوصاف الإكلينيكية الجميلة .

تعليمات خاصة بورسم الأوعية :

إذا فحصت ورماً في الأوعية في طرف من الأطراف ووجدته نصف كروي يتضخم تحت يدك كل مرة (أى ينبض) ولكنه إذا فصلته عن بقية الجسم لا ينبض وهذا لا يمكنه أن يتضخم وأن ينكش ، فقل عنه إنه ورم في وعاء ، إنه مرض سأعالجه وإن الأوعية هي التي سببته ، وقد نشأ عن إصابة للأوعية . وهذا وصف صحيح لورم شرياني ولميزاته ، وهي أنه ينبض ، وأن النبض يتوقف إذا فصل بينه وبين الوعاء الأصلي كما أن نشأة تلك الأورام من إصابات الأوعية ذكرت صراحة وأن وصول النبض إليه من الشريان فوقه عرف أيضاً .

توجيهات خاصة بورسم في الأوعية :

إذا تفحصت ورماً في الأوعية في طرف من الأطراف ووجدته نصف كروي يتضخم تحت يدك كل مرة (أى ينبض) ، ولكنه إذا فصلته عن بقية الجسم لا ينبض وهذا لا يمكنه

أن يتضخم أو أن ينكش ، قل في شأنه إنه ورم في وعاء ،
لأنه مرض سأعالجه .

وريليك وصف الفسوف :

توجيهات خاصة بورم غطاء قرني البطن (أى الحدود السفلى
للبنطن التي تشبه القرنين في شكلها) : إذا تفحصت تورماً في غطاء
قرني البطن فوق العانة ، فضع إصبعك عليه وتفحص بطنه
وأطرق على أصابعك ، فإذا تفحصت ... ما برز وظهر في إثر
سعال فعليك أن تقول في شأنه هذا ورم في غطاء البطن ... هذا
مرض سأعالجه ... الخ .

وتلاحظ في هذين الوصفين دقة الوصف إذ أنهما أبرزاً أهم
النقط في تشخيص الورم الشرياني والفتق ، وهى في الأول أنه
ينبض وأن النبض يتوقف إذا فصل بينه وبين الوعاء الأصلي .
(كما أن نشأة تلك الأورام من إصابات الأوعية ذكرت صراحة
وأن وصول النبض إليها من الشريان فوقه عرف أيضاً) ، وفي
حالة الفتق ظهوره بعد السعال ، كما أنه ذكر طريقة الفحص
بطرق الأصابع التي اكتشفها من جديد أونبروجر في القرن
السادس عشر الميلادى .

وصف مهميل للترجمة المصرية :

إذا تفحصت مريضاً بالمعدة يشكو من آلام في ذراعه
وصدره وناحية من معدته ... فقل بصدده : هذا شيء . (أى روح)
دخل من فيه والموت يهدده .

ولا تقتصر أهمية موسوعة إبرس على الأوصاف الإكلينيكية
التي جاءت بها ، إذ أنها تعتبر أيضاً مرجعنا الأساسى فى علم
عقاقير المصريين وفيما نسميه الآن المادة الطبية .

ومن الوصفات العلاجية التي جاءت بها ما هو مركب من
عقاقير فعالة ما تزال نصفها إلى اليوم ، وإن كان استعمالها يحاط
أحياناً بإجراءات شبيهة بالسحر ، كأن توصف في أشهر معينة
من السنة فقط أو مصحوبة بالتراتيل والبحور ... الخ .

ومنها ما كان سحرياً خالصاً يعتمد على إثارة الاشتزاز في
الروح الشريرة التي حلت بالجسم وأحدثت به المرض ، أو على
أحد ضروب التفكير الروحاني الأخرى التي سبقت لنا مناقشتها .
وسياتى ذكر كل تلك المواد في باب العلاج ، وسأكتفى بأن
أذكر أن من تلك الوصفات وسائل لمعرفة جودة لبن الأم
ولتشخيص الحمل والإجهاض ولتحسين رائحة الفم . . . ومنها باب
(فى علاج عضه الإنسان والتمساح وفرس البحر والسبع) يشابه

لغافة عرست تشابهاً يكاد يكون تاماً ، وعلاج الأسنان الموسوسة بحشوها بخليط من كربونات النحاس والصمغ ومواد أخرى ، وهذا يعد من أكثر علاجاتهم إثارة للإعجاب ؛ أما أوصاف أمراض النساء التي جاءت في هذا المؤلف المحيط فإنها تشبه ما جاء في لغافة كاهون وعلى ظهر لغافة إدوين سميث تماماً .

ولعل أهم ما جاء في هذه المكتبة المختصرة مؤلف عن القلب والأوعية عنوانه : « بدء سر الطيب : معرفة حركة القلب » . ويبدأ بهذه الفقرة : « هناك أوعية منه (أى من القلب) لكل طرف ، وفي هذا الشأن فإن أى جراح وأى كاهن من كهنة سخمت أو أى ساحر إذا وضع يده أو أنامله على القلب ، على ظهر الرأس ، على اليدين ، على المعدة ، على الذراعين ، أو على القدمين ، فإنه يتفحص (بذلك) القلب ، إذ أن كل أعضائه مزودة بأوعيته ، أعنى أنه (القلب) يتكلم عن طريقة أوعية كل طرف » .

وقد وجد الأولون الذين درسوا هذا المؤلف صعوبة كبيرة في تبسغ نص هذا القسم ، بل عثروا على تناقض بين فيما ورد فيه من معلومات ، لانه ذكر حيناً أن عدد الأوعية ٢٢ ، ثم قال إنها ٤٦ ، إلا أن علماء اللغة تمكنوا من حل هذا اللغز ، وأوضحوا أن هذا المؤلف مشكل من مؤلفين مختلفين ، كل منهما قائم بذاته ،

اولها كتاب، نظرى عن القلب ووظيفته وعن الاوعية وأهميتها
لم يرد به ذكر أى مرض أو علاج ، بخلاف الثانى الذى تناول
أمراض الاوعية والقلب وعلاجها ، وهذان الجزآن اختلطا
عند الكاتب فندسخ جزءا من المؤلف الاول ، ثم جزءا من الثانى
ثم الجزء الثانى من الاول ، فبقية الثانى . ويمثل الكتاب الثانى
ما جاء فى لفافة برلين عن القلب ، وروى فيه تاريخ كشفه كما
روته تلك اللفافة ، وذيل بتعليق طويل يماثل ما اختتمت به تلك
اللفافة أيضا . ومهما يكن من أمر الكتابين فإنهما يبرهنا
دون مجال للشك على أن الأطباء المصريين عرفوا حركة القلب
وعلاقة حركته بنبض الشرايين المتطرفة ، أطلقوا على الشريان
الرئيس القريب من القلب اسم « الوعاء » وهو فى الغالب
الشريان الأورطى .

لفافة هيرست :

وهى تقع فى ١٨ صفحة وتصف ٢٦٠ حالة وردت ٩٦ منها
فى لفافة إبرس أيضا ، ثم إنها تحوى بابا عن العظام ، وعلى
الجملة فإن تلك اللفافة أقل قيمة من لفافة إبرس وإن فاقها
فى بعض فقراتها .

لغافة برلين :

روى فيها مجاملة للنظرة اللاهوتية للطب ، أنها وجدت في صندوق قديم مع كتابات عتيقة تحت قدمى الإله أنوبس في ليتوبوليس في عهد الملك أوزافايس ، وهى تشمل ٢٤٠ وصفة وتقع في ٢٥ صفحة ، نسخت ثلاث منها بخط مختلف ، وفى كثير من أجزائها تكرار لبعض فقرات هرست وإبرس ، ثم إنها مليئة بالأخطاء ومظاهر الإهمال ، وأقل مدعاة للاهتمام ، وبها باب عن الرومازم ، وكتاب عن الأوعية يماثل ثانى كتابى لغافة إبرس فى هذا الموضوع ، وإن ذيل بنبذتين ، إحداها عن أصل هذا الكتاب ، وهى أكثر تفصيلا مما جاء فى لغافة إبرس ، والثانية تعد امتداداً وتوسعا لما ورد فيها ، ويمكن وضع هذا الجزء فى مستوى أعلى مما ورد فى لغافتى هرست وإبرس .

أما لغافة لندن : وهى مسيخة ، أى إن الكتابة الأصلية مسحت عنها ليكتب عليها ثانية (بما يدل على غلاء ورق البردى) فهى تقع وسيطا بين كتب الطب السابق ذكرها وبعض كتب الرقى مثل « تعاريف الأم والطفل » و « كتاب السحر » الموجود فى تورينو ، وقد وردت بها ٦١ وصفة منها ٢٥ فقط طبية ، والباقى تعاويذ ، والبعض منها من أصول دخيلة على مصر .

كتاب الأطباء السحري ..؟ أو لصفة أودين سميث والجراحة

تقسم نظرتنا إلى طب قدماء المصريين إلى مرحلتين: **مرحلة** مرحلة قبل كشف لصفة إدوين سميث ومرحلة بعدها. إذ أن المؤرخين كانوا يظنون في أثناء الأولى أن الطب المصرى كان مكوناً من قسط وفير من الشعوذة تصحبه معرفة جزئية للعقاقير والنباتات والتشريح، وأن استعمال تلك الأدوية كان مبنياً في كثير من الأحوال على اعتبارات تتصل بالسحر أكثر مما تتصل بالطب. إلا أن هذه اللغافات أقامت أول دليل على وجود طب منطقي عقلى أساسه الخبرة والملاحظة وعلم تشريح سليم. وهى تمتاز فى أسلوبها باستعمال لغة التخصص، لغة قوية، غنية بالتعابير والتشبيهات الدقيقة. وفى موضوعها تبويب منطقي مرتب يدل على تقاليد طويلة وتفكير أصيل سبقا تأليفها، وبخلوها من أية نظرية أو أى مظهر من مظاهر الطب الروحاني التى تزخر بها المؤلفات الأخرى. وهى تصف ٤٨ مشاهدة فى جراحة العظام والجراحة العامة، مرتبة حسب ترتيب أعضاء الجسم، تبدأ بالرأس وتدرج إلى الأنف والفك، وفقرات الرقبة،

وفقرات الظهر، والأضلاع، والصدر، والرقبة، والكتف،
واللوح، واليدين... ويحق لنا أن نتخيل أن الأصل كان يتناول
بقية الجسم كالـبطن والحوض والساقين.. الخ، إذ أن آخر مشاهدة
— وهي تتصل بالعمود الفقري — تختتم بعبارة ناقصة، كأن
كانت تركها ليقتضى أمراً ثم لم يتم كتابتها.

ويلاحظ أن طريقة العرض فيها تنقسم بالنظام، فكل مشاهدة
تبدأ بالعنوان التالي: «توجهات بشأن...» ثم يجيء الفحص
ويبدأ بالعبارة: «إذا تفحصت إنساناً به...»، ويتبعه
التشخيص: «فقل فيما يخصه إنه يشكو من...»، ثم المآل
المتوقع، وهو يعبر عن احتمالاته الثلاثة: الجيد والمشكوك فيه
والميتوس منه، بالعبارات التالية: «سأعالجه»، أو «سأكافئه»،
أو «مرض لن أعالجه».

وبعد ذلك يأتي العلاج وينتهي ببعض التعليقات والتفسيرات
اللغوية أو الفنية التي — وإن كانت موجهة إلى قارئها في ذاك
الوقت — فهي تمكننا اليوم من تفهم مدلولات ألفاظ كثيرة
وردت بها. ولنذكر على سبيل المثال الأوجه الجديدة بإعجابنا
في تلك اللقاة.

١ — معرفة للتشريح غير ميسورة في هذا الزمن. فإن اللفظ

الدال على المخ ورد — أول مرة في التاريخ — في عهد لم يكن فيه لهذا العضو تسمية في أية لغة من اللغات ، كما ورد ذكر الكيس المخلف له ، وفي هذا إشارة صريحة للآم الجافة والآم الحنون ، وهما غشاء المخ ، أما النبد الخاصة بالعظام والفقرات فهي عديدة .

٢ — الدقة في الفحص . وصحة تفسير العلامات الإكلينيكية ، الأمر الذي لا يمكن تحقيقه إلا بمعرفة سليمة لقواعد فسيولوجية أساسية . فقد عرف صاحب هذا المؤلف معنى قرقرة العظام تحت اليد ، واستعان بها في التفرقة بين الكسر والجزع ، الذي قال عنه بحق إنه إصابة للأربطة دون تغير في وضع العظام . ومن التشبهات التي تدل على أن الجراح كان يعنى بتفحص مريضه بيده — بل إنه كان أحياناً يجرى الصفة التشريحية على المصابين — تشبيه كسر الجمجمة ياناً ، من الفخار مثقوب وسطح المخ بتجعدات كتلك التي تعلو على النحاس عندما يذوب تحت تأثير النار ، وقوله في كسور الرقبة : « إن الفقرة تنغرز في الفقرة التي تليها كما تغوص القدم في أرض مزرعة » .

٣ — الأهمية القصوى التي أعيرت للنبد في معرفة حالة المريض وحالة القلب ، وقد جاءت في أول الكتاب نبذة طويلة

عن الشرايين والنبض وحل جسده ، وما يؤسف له أن هذه الفقرة وردت في الصفحة الأولى المليئة بالثغرات مما زاد في غموض معانيها . ومن العبارات التي أثارت بعض الجدل ، ما يمكن تعريبه على الوجه الآتي : « إن فحص المرض يشبه (عداً أو قياس) مرض شخص لمعرفة وظيفة قلبه ، . وقد رجح بريستد أن هذا التعليق يشير إلى عد النبض ، إلا أن هذا فرض ما يزال الشك يحوم حوله ، إذ أن النبض لا يمكن عده دون الاستعانة بأجهزة دقيقة لقياس الوقت ، ومثل تلك الأجهزة لم يعم استعمالها قبل المملكة الحديثة ، ولم يكشف منه إلا مزولتان مائتان من عهد تحوتمس الثالث ومربتاح . ولكن إذا صح فرض بريستد فإن صاحب اللقافة يكون قد سبق أبقراط وديموقريط — (القرن الخامس قبل الميلاد) الذين لم يذكر أ عد النبض — بالنسبة أو تزيد ؛ وقد لا يكون من مجرد الصدقة أن أول من عده هو هيروفيلوس (٣٠٠ ق . م .) الذي زاول مهنته في الإسكندرية (بمصر) حيث كانت علاقة القلب بالنبض معروفة منذ ٢٥٠٠ سنة ، وكانت المزاويل المائية معروفة منذ زمن ، بل يمكن التخيل — إذا فرض أن عد النبض ورد ذكره فعلاً في كتاب الأطباء السري ، (انظر لقافة إبرس) —

أنه كان سرا من الأسرار التي أخفاها العلماء المصريون عن أبقراط وغيره من الزوار الإغريق . ونعتمد في تقديرنا ذلك المؤلف على هذا النحو على بريستد الذي قارن القسم الوارد عن النبض في لفافة إدوين سميث بنظيره في لفافة إبرس الذي كان عنوانه « بدء كتاب الأطباء السرى » ، وقرر أن المؤلفين نقلوا عن أصل واحد ، وأن لفافته كانت تستهل — قبل أن يأتي بها الدهر ما أتى — بالعنوان نفسه وهو : « كتاب الأطباء السرى » .

٤ — عدم الاكتفاء بدقة الوصف المحلى للإصابة ، بل الربط بين ظواهر متلازمة في أجزاء متباعدة من الجسم تكون منها — أول مرة في التاريخ — صور إكلينيكية مميزة . . . وقد قيل إن جالينوس هو أول طبيب حقق هذا التقدم في التفكير الطبي ، إلا أن طيبينا العبقري سبقه بسبعة عشر قرناً . ومن أمثلة تلك المتلازمات التي وصفها إصابات العمود الفقري المصحوبة بالشلل ، والتبول غير الإرادى ، والاستمناء مع تخصيص الاستمناء باصابة فقرات الرقبة الوسطى ، والربط بين كسور عظمة الصدغ والصمم ، وبين إصابة ناحية من المخ والشلل النصفي . وتدل تلك الملاحظات على معرفة أمرين هامين ، هما أن

ناحية الإصابة تحدد ناحية الشلل وأن النخاع الشوكي والمخ يسيطران على حركة الجسم ، ولو أن الصلة بين المخ والنخاع أو بين الجهاز العصبي والأعصاب — بصفتها امتداداً له — لم ترد إلا في القرن الرابع قبل الميلاد في كتابات إغريق الأسكندر (إيزستراس وهيروفلوس) وأن اللفافة قالت : إن الشلل يحدث على ناحية الإصابة نفسها ، وهو عكس المعتاد ، ولعل ما نسميه برد الفعل (contrecoup) هو ما خدع المؤلف في هذا الصدد .

٥ — اهتمامه بتتبع أطوار المرض للوصول إلى التشخيص وللتكهن بالمآل . نذكر على سبيل المثال حالة رأى البعض فيها التيتانوس ، ورجح الأستاذ الدكتور كامل حسين أنها الالتهاب السحائي ، وقسم وصفها إلى فحص أول وفحص ثان وفحص ثالث ، فخلل عوارض كل مرحلة من المراحل الثلاث ، وناقش ما يمكن عمله لكل منها ، وما يمكن استنتاجه من حيث سير المرض ومآله من تطور العوارض بين فحص وآخر .

٦ — الانتقال من التشخيص إلى التكهن بالمآل ، فيقول مثلاً إن مآل كسور الجمجمة سيئ . إذا كان المخ لا ينبض تحت اليد

أو إذا كان العظم منخفضاً داخل المخ ، أو إذا لوحظ تصلب في الرقبة ، أو نزف من الأنف أو الأذن أو تحت الملتحمة .
وكلها علامات حدوث مضاعفات معروفة تزيد فعلاً من خطورة الإصابة .

٧ — دقة وصف التحريكات العلاجية .. ومن أهم الأمثلة لذلك وصف كيفية إعادة جزئي الترقوة المكسورة إلى محلها . وهذه هي الطريقة التي قال عنها عميد المختصين الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين إن العلم الحديث لم يصل إلى أحسن منها ، وإنما تؤدي إلى درجة تامة في الشفاء . وإليك هذا الوصف :
د إذا لحقت رجلاً مصاباً بكسر في الترقوة . ووجدت بها قصراً ، فقل : « هذا مرض سأعالجه » . وألقه على ظهره ، ثم ضع بين اللوحين وسادة حتى يبتعد جزأ ترقوته ويرجع المكسور إلى موضعه . وبعد ذلك ثبت وسادة من الكتان على الجانب الداخلي من ذراعه ، وضمه بمرهم « الأيمرو » ، ثم في الأيام التالية بالعسل .

وهناك وصفة أخرى لردّ فك مخلوع . وهي الطريقة التي وصفها الإغريق بعد تاريخ كتابة اللقاقة بعشرة قرون ، وهي الطريقة الموصوفة أيضاً في أحدث مؤلفات الجراحة .

٨ — تباين المعدات الجراحية التي كان يستعين بها المؤلف في العلاج ، منها :

(١) قماش نباتي يطلّى بالدواء قبل وضعه على الجسم، ويوضع كما هو على الجروح لامتصاص الإفرازات والدم .

(٢) فتائل أو حشو أو سدادات من الكتان تستخدم إما مشبعة بعقار ، وإما نقية للتنظيف . أو بصفة جبائر صغيرة لحفظ شكل الأنف إذا كسرت عظمتها .

(٣) الأربطة : وكان يصنعها المخطون ، على أن ممارسة التحنيط قد أكتسبت المصريين مهارة فائقة في ربطها .

(٤) الأربطة اللصاقة ؛ وكانت توضع منها قطعتان مستعرضتان على الجرح لضم حافته .

(٥) الخياطة ، وقد ذكرت ست مرات .

(٦) السكي، وكان يجري بالخرار النارى (مثقاب توليد النار) وهو جهاز يستخـن به طرف قطعة مديـبة من الخشب بمحكها في ثقب من قطعة خشب أخرى، وقد أوصت بردية لإبرس كذلك باستعمال مفصلد نحى .

(٧) الجبائر ، وهى إما قطع من الخشب ملفوف عليها كتان

توضع في الفم لحفظه مفتوحاً حتى تيسر تغذية المريض إذا تعذر عليه فتح فمه ، وإما جبائر من الخشب المبطن بالكتان، أو لفافات صلبة من الكتان دون سند من الخشب .

(٨) وأخيراً حوامل من الطوب المجفف في الشمس (يلاحظ استعمال كلمة أدوب ، التي أخذت منها لفظة الطوب) وأوصى المؤلف بوضعها تحت ذراعى المريض الذى لا تسمح له حالته بالاستلقاء على ظهره . ويرجح بريستد أنها كانت تصاغ على شكل جسم المريض لزيجه ، كما كانت تصاغ الأربطة المقواة حول الموميات .

وقد حار علماء المصريات في شخصية مؤلف هذه اللقافة : رجح بريستد أنها قد تكون من تأليف ايموحتب ذاته ولم يرافقه على هذا الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين لأسباب تحليلية دقيقة ، أهمها أنه يبدو بعيداً كل البعد — في تفكيره ومعاملته المرضى — عن الكهنة أو عمن تلقوا العلوم منهم ودرجوا على أسلوبهم في التفكير . وأنكر أيضاً أنه كان جراحاً حريصاً كما قال البعض الآخر ، حيث إن جروح الحرب لكثرتها — ولظروف الهجوم والدفاع والحركات الحربية — لاتدع وقتاً كافياً لدراسة كل حالة الدراسة التفصيلية التى تم عنها اللقافة .

ثم لاحظ الدكتور محمد كامل حسين أن الإصابات التي تناولتها
اللفافة من النوع الذي يحدث من سقوط من ارتفاع .. وفي مثل
بناء الهرم الأكبر الذي شيد في ثلاثين سنة تحدث إصابات كثيرة
من هذا النوع ، متباعدة في الزمن تباعداً يسمح لمتولى أمرها
بأن يدرسها دراسة وافية ، وأن يتأمل فيها تأملاً كافياً ، فرجح
أن المؤلف هو عامل من أولئك الذين شاركوا في تشييد الهرم
الذي استغرق بناؤه وقتاً طويلاً ، عامل امتاز بعقريّة نادرة
وبحبه لجاره ، وبقوة ملاحظة ثاقبة، بلغته ما وصل إليه من شأن

* * *

إلا أن ماسبق قوله عن اللفافة لا يخص غير قسم منها ، إذ أنها
مكونة من ثلاثة أقسام . أهمها وأطولها هو ذلك الذي وصفناه
وسمى بـ (كتاب الجروح) ، وهو الذي قال عنه بريستد : إنه
قد أحدث بدون شك ضجة كبيرة في العالم الطبي عند ظهوره ،
وأزيد أنه أحدث ضجة كبرى بين طلبة تاريخ الطب اليوم عندما
ترجم ونشر .

أما ظهر تلك اللفافة فجزء منها مكتوب بمثل خط صفحتها الأولى
وجزء بخط آخر ، وهو يحوى ٨ تعاويد د لإبعاد هوا الطاعون

السوى ، ، ووصفة قال عنها العلماء خطأ إنها سحرية ، وتعنى بإعادة الشباب إلى الشيوخ ؛ ولكن التدقيق فى قراءتها يبين أنها لاتزيد على كونها وصف لكيفية استخراج زيت الحلبة واستعماله دهاناً للشيوخ لإزالة الصلح والنش وكل علامات الشيخوخة التى تشوب الجلد . ومن العجيب أن الجمهور فى مصر يستعمل الحلبة لاستعادة القوى .

وسأذكر أولى تلك الوصفات لأظهر التباين الكلى بينها وبين الجزء الأول ، وهى خاصة بإبعاد هواء الطاعون السنوى (أوهواء سنة الطاعون) وفيها — مع طابعها الروحانى الظاهر — أول ذكر لآرياح تحمل الأمراض : « تعويذة تتلى على ريشتى رخم توضعان على شخص لحمايته أينما ذهب . إنها حامية ضد السنة ، تطرد المرض فى سنة الوباء : « يا حامل الذهب فى وجهه ! ياسيد الأفق ! حدث صاحب دار همسوت الذى يجعل أوزيريس يزدهر ، يا نخب ، يرافعة السماء من أجل أبيها ، أحضرى الريشتين واربطيهما حولى لأعيش ، ... وما إلى هذا من توسلات غامضة المعنى مليئة بالإشارات إلى الأساطير .

ولاشك فى أن تلك الأقسام الثلاثة — التى تختلف فى اللغة

والجوهر والروح والخط - استنسخت من أصول متباينة ،
لم تجمعها على نفس البردية إلا الصدف التي وضعتها أمام الكاتب
على هذا الترتيب ، شأنها في ذلك شأن اللقافات الطيبة قاطبة . ولنا
أن نأسف إذ أن القسم الجراحى لم يأت كاملا ليرشدنا إلى كل ما كان
قد حققه جراحو ذلك العهد .



الجراحة والخنان

ما الذى نعرفه عن
جراحة المصريين عدا
ما جاء بلقافة أدوين سميث

بعضهم ، مازحا : إنه لا يقدر مؤلفا بما ورد فيه ،
ولأنما يقدر ما حذف منه ، أى يقدر ما اقتضى تأليفه
من دراسات وتأملات لم يذكر تفصيلها فى المؤلف نقتبس
هذا القول فنقول إن أهمية لقافة أدوين سميث بالنسبة لنا هى
بقدر المعلومات التى تكسبت حتما قبل أن تظهر منها تلك اللقافة ،
كما تبرز الجزر الصغيرة من قمم الأقطار الغريبة .

وتلك الجزر التى وصلت إلى أبصارنا قليلة . فإننا مثلا لم
نعثر إلى الآن على مؤلفات علمية تصف عمليات الجراحة كما كانت
تجرى ، ولم تقدم لنا اللقافات الأخرى إلا معلومات ضئيلة
بالنسبة للجراحة . وبقية معلوماتنا مستمدة من بعض النقوش
التي وجدت على جدران المعابد والمقابر ، ومن نتائج الكشف
على الجثث والموميات .

وَنَلْقَى تِلْكَ التَّمَشُّشَ ضَوْءًا قَوِيًّا عَلَيَّ بِبَعْضِ نَوَاحِي الْجُرَاحَةِ
وَلِإِنْ كَانَتْ تَنْشَعُ أَمَامَنَا أَلْغَاذًا لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ حُلُّهَا . وَأَوَّلُ
سُؤَالٍ يَطْرَأُ عَلَى الْبَالِ هُوَ : مَا الْغَرَضُ الَّذِي كَانَ يَرْمِي إِلَيْهِ مِنْ نَقَشِ
تِلْكَ الْعَمَلِيَّاتِ عَلَى جِدْرَانِ مَقَابِرٍ لَمْ يَكُنْ أَسْتَحْجِبُهَا مِنَ الْأَطِبَّاءِ ... ؟
أَمْ كَانَتْ تُمَثِّلُ وَقَائِعَ مِنْ مَاضِي الْمَوْتِ ، ؟ أَمْ كَانَ يَرْمِي إِلَى إِحْيَائِهَا
بِالسَّحَرِ لِغِيَابِهَا لِلتَّوْفِي إِذَا اسْتَحْتَاجَ إِلَيْهَا فِي حَيَاتِهِ الْآخِرَةِ ؟
فَهَلْ كَانَ الْغَرَضُ مِنْ تُمَثِيلِ الْحَتَّانِ فِي مَقْبَرَةٍ ، غِنَى مَاحُورَ ،
التَّأَكُّدُ مِنْ إِجْرَائِهِ لِلْأَوْلَادِ الَّذِينَ قَدْ يَرْزُقُهُمْ بَعْدَ وَفَاتِهِ .. ؟ مَا هَذِهِ
الْفُرُوضُ إِلَّا تَخَيُّلاتٌ تَافِهَةٌ الْآسَاسُ قَدِمَتْ لِإِجَابَةِ السُّأَلَةِ الَّتِي
مَا تَزَالُ مَطْرُوحَةً لِلْبَحْثِ إِلَى الْيَوْمِ .. ، وَإِنِّي لَا أَسْتَبْعِدُ — مُسْتَعِينًا
بِكَثِيرٍ مِنَ الْخَيَالِ وَبِدُونِ أَى سَنَدٍ عَلَيَّ — أَنْ تَكُونَ بَعْضُ هَذِهِ
النَّقُوشِ أَوْ الصُّورِ الْمَخْفِيَةِ فِي ظِلَامِ الْمَعَابِدِ لَوَحَاتٍ تَدْرِيسِيَّةٍ تَكْمَلُ
تَعَالِيمَ الْكُتُبِ وَتَصْحَبُ التَّلَقُّينَ الشَّفَوِيَّ فِي السَّرَادِيبِ السَّرِيَةِ
بِالْمَعَابِدِ ... شَأْنُهَا شَأْنُ النَّقُوشِ أَوْ الصُّورِ الْإِلَهَوِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ
تَزِينُ الْقَاعَاتِ السَّرِيَةِ وَحَجَرِ الْإِلَهَةِ بِالْمَعَابِدِ ، وَالَّتِي كَانَتْ تَصُورُ
بِشَكْلِ حَيٍّ أَسَدَ الْدِينِ لِلرَّيْدِينَ مِنَ التَّلَامِيذِ .
وَأَمَّ تِلْكَ النَّقُوشُ أَوْ الصُّورُ ، التَّمَشُّشُ الْمَوْجُودَانِ فِي سَقَارَةِ
فِي مَقْبَرَةِ « غِنَى مَاحُورَ » ، اللَّذَانِ يُمَثِّلَانِ عَمَلِيَّةَ الْحَتَّانِ .. نَرَى

في النقش الآيمن منهما شخصا واقفا ، وقد يجلس على الأرض أمامه الجراح — الذي ذكرت قبالة عبارة « الكاهن المختن » — ممسكا بيده اليمنى آلة مستطيلة في وضع عمودي على العضو وفي اتجاه طوله .. ونلاحظ أنه لا تبدو على أساور وجه المختن ما ينم عن تأله . أما الجزء الأيسر فيظهر فيه الجراح ممسكا بآلة أو بشيء آخر يرضى الشكل يلبس به العضو التناسلي الذي يسند يده اليسرى . وفي هذا الجزء تدل ملامح المريض على شعوره بالألم . ونلاحظ كذلك وجود مساعد الجراح خلف المريض وقد أمسك بذراعيه على ارتفاع وجهه في قوة وعنف .. وتقرأ قول الطبيب : « امسك كيلا يقع ، والإجابة : « سأفعل وفق إشارتك » . وبديهي أن تكون اللوحة الأولى لإيضاح التحضير أو التخدير للعملية .. إذ يقول الطبيب : « هذا الدهان يجعله مقبولا » ولا تم ملامح المريض على أى ألم ... وأن تكون اللوحة الثانية لتبيين الطور الثاني من العملية وهو إجراء الجراحة نفسها . وقد فسر د بيلي ، وضع الآلة « المستطيلة عمودية على العضو ، بأن العملية كانت تجري على مرحلتين : الأولى لإحداث قطع مستطيل من منتصف العضو إلى آخر القلفة، والثانية قطع دائري في العضو يبدأ عند القطع الأول .

ولقب الحتان يلفت النظر من غير شك ، فقد لقب
بـ « الكاهن المختن » ، وربما يدل هذا على أن العملية التي يقوم
بإجرائها لاتدخل ضمن اختصاصات الجراح العادى .

وهناك نقش آخر لعملية الحتان فى الكرنك يظهر فيه الجراح
وهو يضع الآلة القاطعة بيده اليمنى على العضو التناسلى فى مستوى
الكرة — بعد ربط العضو يرباط دائرى على قاعدته — ويفتح
فتحة القلفة بأصابع يده اليسرى . وهذا من غير شك لتجنب
جرح العضو عند القطع ، ولكن الآلة القاطعة تختلف عن الرسم
الأول فهى أشبه بمشط أو سكين مكشوط الحد .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الحتان لم يكن يجرى فى الماضى
بالشكل المتبع الآن ، أى إنه لم يكن استئصالا كاملا للقلفة وإنما
كان مجرد قطع مستطيل يجرى على ظهرها للاكتفاء بفتحها .

وقد كان المصريون — حسبما روى هيرودوت — أول من
زاولوا الحتان ، وتبعهم فى ذلك الآشوريون والكوشيون
(الآحباش) .. أما غيرهم من الشعوب فقد تقلوه عنهم . وكانت
عملية الحتان تجرى للأولاد فى المعابد غالبا بين سن السادسة
والثانية عشرة ، ومع ذلك فإنها لم تكن فرضا على الشعب كما

صارت فيما بعد عند اليهود أو سنة عند المسلمين — إذ أننا لا نجد لها أثرا في كثير من النقوش .

ومع أنه لا يوجد مجال للشك في معنى النقشين المذكورين من مقبرة « عنخ ماحور » ، فإن المقبرة نفسها تحوى نقشين آخرين يتركان مجالا كبيرا للتخيل في التفسير ، الأمر الذي لا يسمح بالجزم بما يمثلانه ، ويبين هذا النقش شخصا يعنون بقدمى ويذى شخص آخر .. وهذا الأخير «ك ذراعاه ييد منقبضة . وقد دون الفنان الذى قام بالنقش عبارة في أسفل كل من اللوحين ، الأولى : « الله راتركنى وشأنى » . والآخرى : « لا تسبب لى كل هذا الألم » . ورأى البعض فى النقشين صورة للتدليك و « المانوكور » و « البديكور » ، والبعض الآخر عمليات جراحية .

وهناك نقشان متشابهان ، مع أن الأول خاص بالملك « أحم » ووجد فى أيبندوس (العرابة المدفونة) ، وأن الثانى خاص بالملك « دجير » ووجد فى سقارة . والاثنتان يرجعان إلى أول عصر الأسر ويتصلان بأعياد اليوبيل الملكى « الحب سيد » ، التى كان الغرض من طقوسها إعادة قوى الحياة إلى الفرعون الكهل وعن طريقه إلى الدولة بأجمعها .

ويمثل كل من النقشين شخصا جالسا يصوب آلة رفيعة

مستطيلة يمكنها من طرفها نحو رقبة شخص آخر، أما هذا الشخص الآخر فهو ساجد منحنٍ إلى الوراء وذراعه مربوطتان خلفه، وقد فسرها بترى (Petrie) وغيره بأنهما يمثلان ذبح الأسرى أو القرابين البشرية في حفلات جناز الملك .. أما فيكانتيف (Vikentieff) فقد قال إن هذين النقشين — بما أنهما متصلان بمراسيم « الحب سيد » — يرمزان إلى إعادة القوى الحيوية إلى الملك المسن، وبالتالي إلى الدولة، وقد شبه فيهما الشعب بمريض قرب من الاختناق، وشبه طقوس اليوبيل بعملية إعادة النفس بفتح القصة الموائية (التراكيوتومى) .. ويستند فيكانتيف في ذلك إلى وضع الشخصين، وطريقة مسك الآلة المديية، اللذين هما في نظره يمثلان ما يتوقعه الإنسان في حالة إجراء عملية جراحية، ولا يشبهان وضع القاتل الغادر أو محط الجثة، حيث إن الجثة ما كانت وضعت في هذا الوضع الساجد ... وقد أيد نظريته بمحج لفظية فحواها أن الفعل الدال على التنفس خصصه الكاتب في هذه اللوحة بالمشروط، لا بعلامة الأنف أو القلع كما هو المعتاد، مما يوحى بأن تلك اللفظة تعبر عن نوع خاص من التنفس، هو التنفس بشق القصة. وقد أيد الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين وجهة نظر فيكانتيف وأضاف أن المشروط

الخاص الذى على شكل المشعين والذى يسمح بتغيير اتجاه القطع كما هو واجب فى تلك العملية .

ومن العمليات الأخرى التى قيل إن قدماء المصريين كانوا يجرّونها عملية « التربية » ولم تذكر لفظة أدوين سميت سوى عبارة خاصة برفع قطع العظم المنخفضة فى المخ دون ذكر التربية . والدليل الوحيد على إيجرائها هو استكشاف جمجمتين إحداهما من العصور السابقة لنا موحد الشطرين ، والأخرى من عهد الأسرة الثانية عشرة ، تحمل كل منهما ثقبا مستديرا تدل التغيرات الحيوية التى شوهت على عاقته على أنه أجرى قبل الوفاة بوقت كاف . ومن المحتمل أن إجراء التربية — إذا صح إجراؤها — كان فى أول الأمر متصلا بالسحر ، وأن الفرض منه كان طرد الأرواح الشريرة من ذهن المريض .

وقد وصل إلينا تصوير جميل على جدار معبد كوم أمبو يمثل جراحاً أمامه آلات جراحية عديدة والمتاحف تزخر بالآلات يظن أنها كانت حقيقة مستعملة فى الجراحة ؛ إلا أنه لا يمكن تحديد وجه استعملها بالضبط أو حتى التأكد من أنها كانت حقيقة مستعملة فى الجراحة . ومن هذه الآلات المخالب والمقصات والمشارط والإبر الخ .

علاج الجروح :

وإذا تتبعنا طريقة علاجهم للجروح وجدنا أنهم استعملوا طرائق لا تختلف في مبادئها عن أحدث الطرق ، اللهم إلا إذا استثنينا استعمال العقاقير الجديدة (المضادة للبيكروبيات مثل البنسلين والسلفا وما إليها) التي لم يكن لهم إليها من سبيل (على أنهم مع هذا استعملوا المعطونات في العلاج كما سئى في باب العلاج) .. نراهم يهالجون الجروح النظيفة في أول يوم بالخياطة والأربطة اللصاقة ، وقد وجدت مومياء تؤكد ذلك ، إذ أن بها جرحا شفى يحمل آثار خياطة ظاهرة .

أما الجروح الأخرى فكان يوضع عليها لحم طرى . وقد لا تبدو لنا هذه الطريقة غريبة إذا تأملنا في أنها أنجع وسيلة لوقف النزف ، بل إنها الطريقة الوحيدة في بعض الحالات ، خصوصا إذا كان هذا النزف من نوع الرشح الذى لا يصدر من شريان مقطوع ، لما يحتويه اللحم من المواد المجلطة ، التى تسهم في تجلط الدم الطبيعى . وقد استعملت هذه الوسيلة في العصر الحديث في جراحات المخ ، وأصبحت مألوفة عند الجراحين ، حين لا يمكن كشف الشريان المقطوع أو ربطه .

أما بعد أول يوم فكانت الجروح تضمد بالأعشاب القابضة والعسل . والعسل أيضا له فوائد أكيدة ، فإنه يحول مركز ، يستدر من حواف الجروح — حسب قوانين التناضح (أوزوموز) — مصلا مليئاً بالمواد الشافية المضادة للعدوى .

الكسور :

وجدت لها آثار كثيرة في الجثث ، وذلك لأن العظام لا تتحلل . وكانت حالات الكسر في عظم الفخذ كثيرة ، وكانت تشفى تاركة تضخما حول محل الالتئام وقصرا في العظم ، أما كسور العضد فكانت نتائجها أحسن من حيث استقامة العضو ووظيفته ، بسبب ضعف القوى العضلية الجاذبة لطرفي الكسر . وقد وجدت حالات عدة لكسر الزند وحده . والمرجح أن تكون نتيجة لضربة مباشرة على العضد المرفوع للدفاع عن النفس (اليوت سميث) ، وكانت تلك الكسور الفردية سهلة الشفاء .

ولقد عرفت الجبانة واستعملت من قبل عهد الفراعنة وعثر على كثير منها في مقابر الأسرة الخامسة ، وكانت تتكون عادة من قطع من الخشب أو القشرة أو السكتان متصل كل منها بالآخرى بواسطة أربطة ، مبطنة بالسكتان ، ولكن العضو يحاط

بها كالأسطوانة . وكانوا يراعون في ربطها أن تشمل المفصلين
أعلى الكسر وأسفله . ولم يعرف المصريون مزايا الشد التي فطن
إليها الإغريق بعدهم ، إلا أنهم كانوا يردون الكسور والخلوع
في مهارة فائقة ، كما هو ظاهر من صورة عمارة أبي ومن
الإرشادات الواردة في لفافة إدوين سميت الخاصة بكسور النرقوة
والأنف وخلع عظمة الفك .

ولكن الكسور المفتوحة لم تعالج بهذه القدرة من النجاح ،
فإن معظم ما وجد في الجثث لم يلاحظ فيه أى تغيير حيوى .
وكانت الحروق تعالج بالعسل والزيت والمواد الدهنية
مصحوبة بالتعاويد ، كالحوار بين إيزيس والرسول الذى ذكرناه
في باب السحر .

الأورام :

ودرست في لفافة إبرس التى جاء فيها وصف الأورام
الدهنية والفقق والتمدد الشريانى ، والتى أوصت عند فحصها
لجسمها المحرقة ما إذا كانت تتموج ، فإذا كانت متموجة وجب
حسابها سائلة أو دهنية . وقد جاء بها وصف يتفق والجرية
الخبيثة أو السرطان ، ومنها ما هو أبشع ، وهى التى تظهر

منها البثرات ويتلون الجلد وترسم الرسوم على سطحها وتحدث
 آلاما شديدة ، فقل عنها : إنه ورم الإله خوتسو ، ولا تفعل شيئا .
 وقد قيل إن المصريين كانوا يعرفون التخدير ويستعملون
 لهذا الغرض حجر منف ، وهو نوع من الرغام مخلوط بالخل .
 ومثل هذا المزيج يتصاعد منه غاز حمض الكاربونيك الذى
 له خواص تخديرية محلية ، أما إنهم كانوا يرقعون الأعضاء بأعضاء
 أشخاص آخرين — كما قال البعض — فهذا خيال لا يستند إلى
 أى دليل .



العلاج

الآن وقد اطلع القارىء على كثير من أساليب علاج أسلافنا يحسن أن نستطرد فنلقى نظرة عامة على تلك الطرائق .

ولنبداً بالعقاقير ، فلعل استعمالها يعتبر مثلاً طبياً لازدواج الاتجاه الطبي المصرى تحت تأثير النظريات الدينية من جهة ، والنزعة التجريبية التى امتاز بها المصريون من جهة أخرى . .

كانت معلومات الأطباء والكهنة ومن إليهم من المتطبين فى الكيمياء متقدمة . وقد ورثنا منهم أسماء مواد ونباتات عديدة وصلت إلينا كما هى ، منها نبات (بن) الذى يستخرج منه زيت البان ، وكلمة gum أى الصمغ المأخوذة من (كيت) التى تحولت فى اللغة القبطية والإغريقية إلى كوى . . . وقد قيل إن كلمة (أمونيا : النوشادر) أصلها من آمون (أى ملح واحة آمون أو سيوة) ، بل إن كلمة (كيمياء) أصلها (كمت) وهو اسم مصر فى هذا الزمن .

وكانت تلك المعلومات تيسر لهم تجهيز المراهم والأقراص

والأشربة وغيرها من الأدوية ، وكان تركيبها مرتبطا دائما بالدين
يجرى في معمل خاص في المعبد اسمه (أسيت) طبقا لطرق سرية
وطقوس جامدة ونسب معينة ، تقدر بالكيل لا بالوزن .
وقد جاء ذكر ما يقرب عن ٥٠٠ نوع من المفردات ، منها :

١ - المواد المعدنية :

المواد المعدنية مثل الحجارة الكريمة (وبخاصة الفيروز)
والذهب ، والفضة (للطلاسم والأحجية) ، والشب وأملاح
اتسموان وكاربونات النوشادر والجير وكاربونات الجير وصدأ
النحاس (الزنجار verdigris) وأملاح الحديد والمائزيا وسلفات
الزئبق وأملاح الرصاص والبوتاس والصودا والنطرون .

وإذا استثنينا تلك الأصناف التي استعملت لغلاؤها كالذهب
والحجارة الكريمة (التي ما يزال الهنود والفلكيون يعززون إليها
قيما خفية ترتبط بالآفلاك) فإن أغلب تلك المواد فعالة ومستعملة
إلى اليوم ، فالشب قابض وموقف للزيف ، وكاربونات الجير
معادل للأحماض وملطف للجلد ، وصدأ النحاس يعالج به الرمد ،
والمائزيا مليئة ، وأملاح الرصاص مرطبة للاتهابات السطحية
وتستعمل في علاج الكدم وما إليه .

٢ - النباتات :

ولعلها تكون أهم جزء من أقرابازينهم :
وقد عرفت مدلولاتها أولاً من النقوش (حيث رسمت - في
بعض الحالات - بجوار أسمائها) ومن المقابر حيث عثر على
بعضها ، مثل الخردل والخشخاش ، ومن النصوص القبطية ،
ولكن الكثير منها لا يزال غامض المعنى وخصوصاً بعض
الأسماء كانت سرية . ومن الأنواع المعروفة : السنط والابست
(وهو طارد للآرياح ومنبه للقلب) ، ورجل الذئب
Acanthus mollis والصبر والسنامكة (ولها فوائد ملينة محققة)
واللوز (ملطف وملين) والثبت والأنيسون والبايونك والكمون
وحب الهال (الحبان) والنعناع وجوزة الطيب وجبة البركة
(وكلها طاردة للآرياح وهاضمة) وشعر الجن والخروب (كان
يستعمل لتقوية الباه وطرده الديدان وتحلية الأدوية) والقرطم
والشتم (وهو ما يزال يستعمل في ريفنا وفي السودان لعلاج الرمد)
والكولتيك (وهو أنجع وأسرع علاج لنوبة القهرس) ،
وعدة أنواع من النبات من فصيلة القرع (والكثير منها طارد
للديدان أو ملين) والهندباء والحلبة (وصفت لإزالة علامات

الشيخوخة) والتين والعروعر (وهو مدرّج ومطهر للبول)
والجنطيان (منبه للشهية وهاضم) والأرمان (قشره كان وما إلى
يستعمل لطرد الديدان) والسكران (مفيد لعلاج المغص وحصى
الكلى وتقلصات العضلات والأمعاء) والحشيش واللفاح
(مسكنان) والكتان والزئبق والخردل والمر والعفص
والزعفران ، وبصل العنصل (مقوِّ لعضلة القلب ومدرّج للبول
والبولينا) والأشماخ والاشتراك (لبنى الرهبان) والتربتين
لطرد الديدان (وهو مفيد وكان شائع الاستعمال حتى وقت قريب)
وغيرها . وفي العقاقير النباتية ورد عن قواته الخروع باب كامل
في لفافة إبرس ، فقد جاء فيها : « لمعرفة ما يصنع بنبات الخروع
(حسبنا وجدنا في الكتابات العتيقة وهو شيء يجدي استعماله) ،
إذا صحت جذوره في ماء ووضعها على رأس مريض فإنه يبرأ
فوراً كالسليم . وإذا مضغ المصاب بالإسهال قليلاً من بذره
وتناول معه الجعة طرد المرض من باطنه . وإلى هذا فإن شعر
الديدان ينمو تحت تأثير البذور : فهي نصحن وتمزج بالزيت
ويدهن الشعر بها ، ثم إن الزيت في بذرتها يستعمل لدهان من
يشكو من الأنف . . . من رائحة كريهة ، علاج ممتاز حقا
جرب عدة مرات .

المواد الحيوانية :

العسل ولبن البقرة والحمار والماعز والمرأة ، ولقد اعتبروا في جميع عصورهم أن لبن النساء عامة أرقى من لبن الحيوان ولكنهم كانوا يحصلون في المرتبة الأولى لبن المرأة التي أنجبت طفلاً ذكراً ، وبعدهم فإن أبقرات أوصى أيضاً باستعماله كما أوصى الأقباط وعرب مصر من بعده .

ولما كانوا يعتبرون هذا اللبن سائلاً ثميناً حرصوا عليه ووضعوه في أوعية مصنوعة على شكل امرأة تحمل على ركبتيها ولداً وقرناً كالذي كان يستعمل للحقن الشرجية أو المهبلية ، وقد استتج علماء الآثار من النحافة الشديدة الظاهرة في أسفل جسم هذا الطفل أنه يمثل الطفل الهزيل الذي رزقت به إيزيس من أوزيريس والذي كان بالغ الضعف لأن أوزيريس أتى زوجته بعد وفاته .

ومن المواد الحيوانية الأخرى كبدة الثور والعجل والخنزير ، وكان يستعمل لشفاء غشوة الليل ، وقد دلت البحوث الحديثة أن غشوة الليل ناشئة في أغلب الأحوال من نقص في فيتامين (أ) الذي يتوافر في هذه الأنواع من الكبد . ومن الأدوية التي

استعملت أيضاً لعلاج غشوة الليل — وقد تبعهم في ذلك أطباء
 الأقباط — روث الوطواط وبوله، وقد قال «ليفير» دون أن يذكر
 مرجعه : إنه ظهر من التحليل أن روث الوطواط يحوى كيات
 كبيرة من فيتامين (أ) ولم تقتنه قائمة علاجاتهم الحيوانية عند
 هذا ، بل استعملوا أيضاً بعض الأسماك وصفراءها ونخ
 الحيوانات وشحمها وشعرها وإفرازاتها وفضلاتها ؛ وإذا كان
 الكثير من تلك المواد له فوائد علاجية أكيدة ، فإن هناك مئات
 الأصناف التى يبدو لنا استعمالها غريباً أو سخيلاً. أذكر منها على
 سبيل المثال : شعر التيس وسن الحمار وروث فرس البحر وغسالة
 الفسّسالات ، وقد عدّت من بين تلك الأصناف البقول المعطنة
 التى وصفت مع الدقيق لعلاج الإكزيما مع الدقيق والقشرة التى
 تغطى خشب السفن المغمورة لرفع الرحم إلى محله . ولعل المصريين
 القدامى فطنوا إلى أن تلك المتعظّات تحوى الكثير من المواد
 المطهرة الممتازة ، فما هى فى الحقيقة إلا مزارع من الفطريات ،
 وهى الفصيلة النباتية التى استخرج منها (فلنج) وأتباعه البنسلين
 ثم الأستروبتوميسين والترايسين وسائر أنواع المضادات الحيوية
 التى يعدها الطب أبهر تقدم حققه القرن العشرون ، وقد أوصى
 الإغريق ، وكذلك أطباء القرون الوسطى ، باستعمال المتعظّات

وقد لا يخلو من المفزى أن تلك العلاجات كانت مخصصة لأمراض
تنتج من التلوث بالميكروبات ، التي قد تبديها تلك الفطريات .
ولا يتحتم علينا — لمجرد أن باستور لم يكن قد اكتشف
الميكروبات بعد — أن نحكم على تلك الحكمة الشعبية بأنها كانت
من ضروب السحر والفولكلور ، وإنما يجب أن نسلم بأنها كانت
على الاغلب مبنية على التجربة ليس إلا .

وبالمثل فإننا إذا قلنا — عن كل ما يبدو أغريباً في تلك
الوصفات — إنه مخيف أو خيالي أو سحري ، كان هذا حكماً على
المدلول الظاهر للأسماء الواردة ، ولعل حكمتنا هذا جائر إذ أن
بعض تلك المدلولات ليست هي المعنية بالذات ، فلا يعقل مثلاً
أن يدخل رأس الحمار في مرهم أو أن تستعمل ريشة الإله تحوت
أو أن يذاب سن الحمار في الماء ... وكل هذا ورد ، ولذا وجب
علينا أن نتأمل أولاً لعل تلك الألفاظ أسماء سرية للعقاقير
لا يعرف مدلولها إلا العارفون ، أو أوصاف شعرية أو تشبيهية
لبعض النباتات الطبية . وكلا الفرضين له ما يبرره ، فمن المعروف
أن بعض المواد كانت لها أسماء سرية حتى القرون الوسطى مثل
الـ green dragon لسلفات النحاس وغيرها من الأسماء التي
استعملها الكيمائيون الذين حاولوا تحويل المعادن إلى الذهب

والتي لم يكشفوا مدلولاتها إلا لمعشرهم كشفاً تدريجياً بعد كل خطوة من خطوات قبولهم في طائفتهم السرية .

وهناك من جهة أخرى مفردات عدة ، ما تزال تحمل أسماء خيالية أو تشبيهية مثل : رجل الذئب *acanthus mollus* ، وشوك الغنم *abuliton avicennae* وكف النسر *scolopendrium* (العقربان أو سقولوفندريون) و تراب اليابان *catechu* وفي كلاب *chenopodium morali* ... الخ. ولنا إذا ما قرأنا ما كتب عن استعمالها فلا يخطر أبداً في أذهاننا أن المقصود بها هو حقاً رجل ذئب مقترس ، أو كف نسر يطير ، أو تراب من أرض اليابان ، أو ريح من خلف الكلاب .

ولذا يجدر بنا أن نخفف من حكننا وأن نسلم بأن بعض تلك الألفاظ تسميات خيالية أو سرية لمواد علاجية معقولة وفعالة . ومن أمثال تلك الألفاظ ذيل الفأر وأذن الضبع ولسان البركة والقذارة التي تتجمع تحت أظافر المرضى وفضلات الذباب على الجدران وجلد من عند صانع الأحذية وماء غسالة الغسّالين . ولقد توصل اللغويون إلى فك بعض تلك الألفاظ التي زادت في صعوبة تفسير النصوص ، فقد عرفوا مثلاً أن الأُبْسَنْت كان اسمه قلب الرحم ونبات الكروكوس هو دم هرقل ... الخ .

وكان الطبيب يعد الأدوية بنفسه على شكل شراب أو مغلي
أو منقوع أو حبوب أو مسحوق أو لعوق أو لبخة أو لوزة
أو قطرة أو مرهم أو بخير أو لبوس أو غسول شرجي
أو مبيلى ، حتى إن الكتابة الهيروغليفية للطبيب كانت
مكتوبة من المقصد والمهون . ولم يعتادوا كتابة الروشتات
(التذاكر) للرضى والغالب أن قطع الخزف ostraca التى
وصفها جونكير والمكتوب عليها وصفات أدوية كانت فى الحقيقة
مذكرات يدونها الطبيب بجانب المريض لتذكره فيما بعد بنوع
الدواء الذى عليه أن يركبه عند عودته إلى منزله .



فروع التخصص

كلمة عن الولادة والرمد وبعض فروع التخصص .
 وأقول التخصص عن عمد . ذلك (إن صدق بعض
 المؤرخين أمثال هيرودوت) أنه تعدى المعقول أو المتوقع ،
 حتى إن المصريين منذ ... سنة بزوا في ذلك معاصرنا عبر
 البحار . وقد قال هيرودوت : إن مصر وطن الإخصائين
 وإن كل طبيب فيها يقصر علاجه على نوع واحد من الأمراض
 ولا يعالج سواه ، فبعضهم يعالج العيون ، والبعض يعالج الأسنان
 أو البطن ... هذا ولو أن بعض الأطباء ادعى التخصص في علاج
 جميع الأمراض ، مثل (إيري) الذي ذكر على شاهد قبره
 أنه طبيب وعميد أطباء البلاط ورمدي وإخصائي المعدة
 والأمعاء والشرح .

وبما يؤكد ما رواه هيرودوت ماورد من الألقاب على مقابر
 كبار الأطباء ، ومن تلك : لقبان أثارا الدهشة والحيرة وكثيرا
 من الجدل حول تفسيرهما . أولهما التسمية الغريبة « راعي شرح
 فرعون » . هل ضاق نطاق التخصص حتى تحدد إلى تلك الرقعة
 الضئيلة من الجسم ؟ أم هل كان هذا الراعي مجرد مساعد يوكل

إليه تركيب الحقن الشرجية ؟ أم إنه كان إخصائيا في الأمراض المعوية عامة كما جاء في كتابة إيرى ؟ ولا يقل القلب الثاني غرابة عن الأول فهو « إخصائى في الأمراض المجهولة » ، وقد فسر جزافا بأنه يعبر عن أن صاحبه إخصائى في الأمراض الباطنة أى ذات الأسباب المستخفية .

وقد ضاق بعضهم بذلك فرجح أن بعض هؤلاء الإخصائيين في علاج مرض واحد لم يكونوا سوى صناع في بعض المهن الطبية .

الولادة :

ومن فروع التخصص ، الولادة ، وكانت تقوم عليها قابلات تلقين قنهن في مدارس خاصة كندسة سايس ، وقد مثلت الولادة في كثير من المعابد في قاعات خاصة سميت بقاعات الولادة والطفولة، وصورت فيها الوالدة ساجدة ، ووراءها ثلاث نساء ، هن الإلهة (نيث) ومساعدة لها ، ومتفرجة تحمل علامة الحياة (عنخ) ، وأمامها القابلة تستقبل الطفل ، والخادمة التي تتعهد المولود بالرعاية في طوره الأول .

وكانوا يعرفون أن الأصل هو الجىء بالرأس كما هو ظاهر من تلك الصور ، ومن الحرف الهيروغليفي الدال على الولادة ،

وهو يمثل الحبل ساجدةً — والوليد خارجاً من تحتها برأسه وذراعيه ، إلا أن هذا الرأس وهاتين الذراعين رأى فيهما آخرون بقايا حرف (مس) ومعناه الولادة .

وقد وردت عبارات تشير إلى جلوس الأم في أثناء الولادة على القرميد (الطوب الأحمر) (وقعت كالوالدة على القرميد ، أنظر لفافة تورينو) ، كما أن محل الولادة في كتابتهم صور بعلامة الولادة وبمحجرين للتخصيص . وروت التوراة أن فرعون أصدر في صدد قتل أولاد اليهود الأمر الآتي : ، وانظروا إلى الحجرين ، فإذا كان الطفل ذكراً فاقتلوه ، وكل هذا يشير إلى أن المرأة المصرية كانت تلد وهي راكعة على حجرين بينهما فراغ ، وهو تركيب يشبه كرسى الولادة الحال . على أنه لم يصل إلينا سوى كرسى واحد كشف في القرنة في مقبرة (خيموزى) قال عنه البعض : إنه كرسى لفضاء الحاجة ، وقال الآخرون : إنه إنما كان مخصصاً للولادة .

وروى بردى وستكار قصة امرأة وضعت ثلاثة توائم ، وأوضح كيفية قطع الحبل السرى وغسل الوليد . . . وأضاف أن الأم عادت إلى شئون بيتها بعد أن ظلت تظهر نفسها أربعة عشر يوماً . وكانت أم الوليد ترضعه فترة طويلة تصل إلى ثلاث

سنوات ، ولم تكن الممرضات المحترفات تستخدم من إلا لدى الأسر الثرية . وفي بردي إبيرس عدة توصيات بملاحظة جودة اللبن عن طريق الشم وبعض القواعد التي يمكن التكهن بها على مصير الطفل . . . هل سيميش أو سيموت ، ووصفات لعلاج اضطرابات التسنين وأمراض الأطفال .

وقد تناولت خمس من اللغات المعروفة أمراض النساء ، وهي تكاد تتشابه تشابهاً تاماً فيما جاء بها عن هذا الموضوع ، مما يوحي بأنها كلها نقلت عن أصل واحد ، وقد يكون الجزء الخامس عن الموسوعة التي ذكرها كليمان الإسكندري . وكانوا يعتقدون أن أعضاء الحوض عائمة في التجويف الباطني متجولة فيه ، فكان يتحتم على أطباهم في حالة المرض إغراؤها على الرجوع إلى محلها بأن تقف المريضة ويخير تحتها بشمع معطر . ومن المؤكد أن الزواج المبكر والولادات المتعددة في سن حديثة ، و حدوث الولادة بمساعدة القابلات واستعمال المواد الكريهة ، من المؤكد أن هذه ضاعفت عدد أمراض الحوض في مصر القديمة . ومن تلك الأمراض التي يبدو أنها كانت منتشرة ، سقوط الرحم ، وقد عالجه بالتعاميل ، والتبخيرات المهبلية بالتربتين أو الغائط المجفف أو بتمثال ل (أبي منجل)

مصنوع من الشمع ، أو بحقن المهبل بعصير نباتات معينة .
 وكانوا — بلامراء — يكشفون كشفاً نساءيا كاملا على السيدات
 بما أنهم وصفوا التهاب الرحم وتوسع عنقه وعالجوه بأنواع
 من عصير بعض النبات . أما المرض الذي أسموه آكل الرحم
 (السرطان) فكان علاجه موضعيا .

وقد عزا المصريون إلى مرض الرحم أعراضا عدة مثل
 الآلام في أسفل البطن والرقبة والأذنين وأمراض العيون
 والنوبات العصبية . وحدد بردى كاهون ملازمة تشمل التهاب
 الرحم وآلام المفاصل والعينين ، ولعل هذا المرض هو السيلان
 الذي كثيراً ما يحدث التهاباً موضعياً وروماتزماً مفصلياً
 والتهاباً بالعينين .

وقد وجدت آلات تشبه القرن المجوف لعمل الحقن
 الشرجية والمهبالية . وما يرجح أن هذا هو الغرض منها ما جاء
 بصدد إحداها : « يعمل معجون من العسل والزجاج المدقوق
 لإفراغ كل ما في داخل المرأة ، » وقد ورد ذكر اسم تلك
 الآلة في باب العلاج .

الصلع :

يقول هيرودوت إن الصلع كان منتشراً ، وقد كان إمينوقليس

الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثانى أصلعين . وكانت الملكة
نفرتارى تلبس شعراً مستعاراً . وكانوا يعالجونه بزيت الخروع
— ويستعمل لهذا الغرض إلى اليوم — مخلوطاً بأدهان فرس
النيل والتمساح والقط والتعبان والتيس البرى ، وكذلك بمخالب
الكلب وحافر الحمار ودم الثور وأحشاء الشيلان والأعضاء
التناسلية للكلبة وقذارة الأظافر وغائط الذباب ، ولندكر أن
ديوسقوريدس استعمل رأس الذباب لمثل هذا الغرض .
ووصفوا (الثعابة) وعالجوها بمراهم وبتعاويذ موجهة
إلى الشمس ، التى كثيراً ما صورت على شكل شخص يمسك بشعر
عدوه قبل أن يذبحه .

الزكام :

وصفت أعراضه وصفاً دقيقاً فى التعويذة التالية :
« انصرف يا ابن الزكام الذى يكسر العظام ويهشم الجمجمة وينخر
المنخ ويصب المرض فى فتحات الرأس السبع ، (دموع العينين ،
مخاط فتحتى الأنف ، ألماً فى الأذنين ، التهاباً فى الفم) . وكان
دواؤه لابن امرأة وضعت ذكراً وصمغ ، ألخ . . . وما تزال
نساؤنا تصفن لملاجه اللبن واللبن والعسل والمطافات .

الأسنان :

ذكر لنا هيرودوت من بين من ذكرهم من الإخصائيين إخصائيي الأسنان ، وكانوا على درجات مختلفة ، فمنهم الطبيب العادي أمثال « من قورع عنخ » الذي جاء ذكره في مصطبة « نى عنخ سخمت » طبيب الفرعون ، وتقريروتيس الذي ذكر في مصطبة « سيشات حتب » مما يدل على مركزهما الثانوى بالنسبة إلى صاحبي المقبرتين ، ومنهم رئيس الإخصائيين مثل « حيزرع » و « بساميتك سنب » .

ومع أن « التسويس » كان قليل الانتشار فإن (البيوريا) والخراجات كانت منتشرة لا سيما في العصور القريية ، وقد ازداد هذا الانتشار بتقدم الحضارة وزيادة الترف حتى في الطبقات العليا كما هو ظاهر من جمجمة أمينوفيس الثالث الذى قال عنه إليوت سميت على سبيل الدعابة — بعد أن استكشف غشاء من الطرامة حول أسنانه وخراجين تحتها — : « لم يواجه فرعون فى ترف طيبة دسائس الكهنة فحسب ولكنه كان ضحية لآلام أسنانه أيضاً » .

وفى حالة حدوث التسويس كانوا يحشون الأسنان بالعسل والصمغ وسلفات النحاس ، وكانت الأسنان القلقة تربط

بالأسنان المجاورة لها بخيط من الذهب . وتدل جمجمة من الأسرة الثانية عشرة أن الخراجات كانت تصفى بواسطة تربانة صغيرة في عظم الفك .

البرص:

لا جديد تحت الشمس ، لقد كانت أمراض العيون شديدة الانتشار كما هو شأنها اليوم . وكان عدد المكفوفين كبيراً ، وكثيراً ما نجدهم ممثلين في النقوش وهم يزاولون القضاء أو الموسيقى ، وربما كان تدريبهم على مثل تلك الفنون نوعاً من التأهيل المهني ؛ ومن الأسماء التي أطلقوها على العمى وصفهم المكفوفين بأنهم يرون الظلام في وسط النهار . فلا غرابة إذن أن تجد مائة وصفا في لفافة إمبرس ، من بينها واحدة تنسب إلى آسيوى من بيلوس . وقد تقل بردى كارلز برج بعض هذه الوصفات .

وكانوا يسمون الحديقة (الفتاة التي في داخل العين) .. وهذه التسمية مثلها في اللغة اللاتينية (Pupilla) أى الفتاة القاصر، وفي اللغة الأسبانية (Nina de los ojos) وكانوا يحسبونها منبع الدموع . ومن الأمراض التي وصفوها وعالجوها التهاب الجفون . عالجوه بنقط من الصبر والنحاس وورق السنط تقطر في العين بواسطة ريشة نسر ، ومنها مرض الشعرة .

وكان يعالج بتعديل وضع الرمش أو بلفه ثم يوضع مرهم مصنوع من دم البرص والخفاش وصفرة العصافير ، والدمل (الشحاذ) ، و انقلاب الجفن للخارج (وعلاجه المواد القابضة) والرمد الحبيبي ، وكانوا يعالجونه بالجرانيت والنطرون الأحمر المحروق وكبريتات الرصاص ، والصنفر وعلاجه بيض الرخم وحجر الصوان الأسود وغائط البجع والتساح ، و (دهن العين) وهو في الأغلب الـ (Pinguecula) وتمدد الحدة والعنبه ، والدموع والسحابة (البياضة) التي أصيبت بها الملكة نفرتيتي آية الجمال . أما الكتراكتا فقد أسموها « صعود الماء إلى العينين » ونحن نسميها اليوم الماء الأبيض (كما أطلق عليه الإغريق والرومان اسم الماء الأبيض) وعلة هذه التسمية أن المصاب بهذا المرض ينظر وكأن سائلا يحول بينه وبين رؤية الأشياء .

وكان مرض الماء هذا يعالج ببعض المراهم والتعاويذ ... ولم يقدر له أن يعالج بالجراحة في مصر إلا في القرن الثاني بعد الميلاد ، وكان ذلك في الإسكندرية حيث نقل (أنتيل) الطريقة الجديدة عن كريزيب القبرصي .

وجاء في لفاقي إرس ولندن ذكر مرض « غشوة الليل » ، وكان يعالج بالسحر وبكبدة البقر بعد تدخينه ، وهذا العلاج ليس

خياليا لأن الكبد يحوى كميات كبيرة من فيتامين (أ) وهو
أحسن علاج لهذه الحالة كما ورد في إبرس ، علاج فقدان البصر
بوضع ماء عين خنزير فى الأذن وترتيل تعويذة فخواها أن العين
تستبدل بالعين .



الصحة العامة

ماذا تحقق بمصر

مفرد هيرودوت إنه — حين زار مصر في القرن الخامس ق . م . — أعجب بحالة المصريين الصحية وإنه وجدهم أسلم الناس بدءاً بعد الليبيين . . فكيف يمكن تقبل هذا الزعم مع الانحطاط الذى وصل إليه المستوى الصحى فى القرن الثامن عشر ؟ . . كان هيرودوت قوى الملاحظة ، ثاقب البصيرة . ولقد دلت عدة دراسات حديثة على أنه كان صادقاً وهو يدون ملاحظاته الشخصية عن البلاد التى زارها ، غير مكثف بالاستماع إلى الأقاويل . فهل خدع مع ذلك بمظاهر زائفة ؟ أم قاس على بلدته هاليكارناسوس فى آسية — حيث كانت الملاريا متفشية — مصر التى كان هذا المرض فيها أقل انتشاراً ؟ أم أن تدهوراً فى الصحة العامة حدث فى العصور التى تلت . . . ولعلنا نجد تفسير ذلك فى الكلمة التى قالها نابليون ، « ليس لإدارة فى بلد من البلاد أثر أقوى وأعق منه فى مصر ، فإذا طهرت القنوات .. وإذا طبقت لوائح توزيع المياه .. وصلت

مياه الفيضان إلى مناطق سحيقة ، وأدى ذلك إلى مضاعفة الإنتاج . إن الحكومة الفرنسية لا تملك سلطاناً على المطر أو الثلج ، ولكن الحكومة المصرية تسيطر بشكل مباشر وحاسم على مدى وصول مياه النيل إلى مناحى مصر المختلفة . . ومن هنا التناقض بين ما حققه هذا البلد من ثراء في عهد البطالة ، وبين مارزى به من إفلاس عندما رزح تحت نير الحكم العثماني . .
وقد أكد المؤرخون — اللاحقون بهيرودوت — العناية الفائقة التي نالتها الصحة الفردية والصحة العامة في مصر القديمة .
قال ديودوروس الصقلي عن أسلوب حياة المصريين : يبدو كأن منظمه كان طبيباً رتبته وفقاً لمقتضيات الصحة لا مشرعاً وفقاً لقوانين .

وكانت تلك العناية تتناول المصرى من مهده ، فلقد كان الطفل يرضع لبن أمه أو مرضعة ثلاث سنوات ، وكان يوصى بفحص اللبن لمعرفة صلاحيته بشم رائحته التي شبت ، إذا كان صالحاً ، برائحة الخروب . ثم كانت تبذل في سبيل صحته عناية قصوى تقبين جلياً لمن يتصفح اللفاتف إذ أنها مليئة بالوصفات الخاصة بقبوله وسعاله وزكامه . . الخ ، أما التوعك الذي يصحب ظهور الأسنان فإنه كان يوصف له أحياناً دواء غريب ،

وهو أن تبتلع الأم أو الطفل فأراً مطهياً وأن توضع عظام هذا الحيوان حول الرقبة في قماش من الكتان عقدت فيه سبع عقد . وقد وجد لليون سميث عظام فأر داخل الجهاز الهضمي لطفل في نجع الدير ، الأمر الذي يؤكد استعمال تلك الوصفة . وقد تبع المصريون في ذلك ديوسقوريدس إذ أنه أشار بالوصفة نفسها لعلاج سيل اللعاب واضطرابات التسنين عند الأطفال . وبعده الإغريق والرومان والأقباط والعرب وأطباء القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين في إنجلترا حيث يوصف هذا الدواء إلى اليوم في بعض الأقاليم . أما عملية الحتان فكانت تجرى في الطفولة (انظر باب الجراحة) .

وكان الزواج يتم بمجرد البلوغ ، مما جنب المراهقين الكبت الجنسي وما ينشأ عنه من عقد وأسهم في وضع المجتمع على أسس عائلية صحيحة . وكان زواج الأخ من أخته بل الوالد من ابنته مقبولاً ، بل معنا في القلم : ويرى التاريخ أن أوزيريس تزوج بأخته إيزيس وأن نقتيس اقترنت بأخيها سيت . وقد احتفظ الفراعنة بتلك العادة تقليداً للآلهة وحرصاً على صفاء سلالتهم . وهم — إما لعدم إدراكهم في أول أمرهم لدور الزوج في تكوين الجنين ، إما بغية التأكد من صفاء انحدر

السلالة — لم يعترفوا بالوراثة إلا عن طريق الأم ، فكان يتحتم على فرعون أن يكون من أم هي بنت فرعون ، وبالتالي أن يتزوج أيضاً من بنت فرعون حتى يكسب ابنه حق الجلوس على العرش ، فإذا كان من أبناء فرعون من تزوج بأخته ، وكان غريباً كحورم حب أو توت عنخ آمون الذي تزوج بابنة فرعون ، وكان له بعد ذلك أن يتزوج من يشاء . ولذا تكثر في ألقاب الملكات عبارات الزوجة الملكية والأخت الملكية ، الخاصتان بالزوجة التي من سلالة فرعون . وكان لهذا الاهتمام ببقاء السلالة سبب سياسى دينى هام ، وهو أن فرعون كان سلطاناً بحكم انحدره من الشمس فكان يتحتم عليه أن يحقق هذا .

وقد عاب الإغريق هذه العادة على المصريين زاعمين أنها تنافى أبسط القيم البشرية ، وما يزال الاعتقاد سائداً حتى الآن بأن هذه العادة تُجمّع العوامل الوراثية الضارة فتعرض لظهور الأمراض الخلقية أو تضاعف من وطأتها فتضعف النسل . ولكن روفر قال بعد دراسة مستفيضة إنه لا أثر لمثل هذا الانحلال في الأسرة الثامنة عشرة وهي التي أنجبت أكبر تسعة ملوك ، ولا عند البطالمة . والحقيقة هي أن الزواج من الأخوات يبرز لونا من الانحراف الخلقى في السلالة نافعاً كان أم ضاراً .

وكان تعدد الزوجات مباحاً . . وكان للرجل أن يقتني الجوارى . . غير أن الزواج بأكثر من زوجة كان محرماً على الكهنة ، فقد كانت الظروف الاقتصادية تحد من هذا التعدد ، بحيث اضطر أغلب المصريين إلى الاكتفاء بزوجة واحدة .

وقد جاء ذكر البغاء الرسمي الذى أنشئ تسهلاً لتفسير المتزوجين والجنود والمسافرين — وإلى جانب هذا وجد عالم الرقصات والمغنيات اللاتي مثلن على التخت و جاء ذكرهن في القصص وفي نصائح الحكماء إلى الشبان (ومنهن كانت راقصات آيون اللاتي لم يكن نماذج للفضيلة وكن يترددن على المحلات المشبوهة) . وقد رأى البعض في هذا دليلاً على الاعتراف ببغاء مقدس في المعابد (كالذى وجد في بابل وفي الهند) على أنه لم يعثر على أى أثر في المعابد أو المخطوطات يؤكد هذا .

الرياضة البهرية :

وكانوا يعرفون قيمة الألعاب الرياضية في تكوين الشباب ويهتمون بممارستها وعلى رأسهم فرعون الذى كانت الحرب أهم شواغله الأمر الذى اقتضى التدريب على ألعاب القوى منذ الطفولة استعداداً لها . ولنا لتقرأ أن رمسيس الثاني في شبابه مع

زملائه ، كانوا دائبي القمرين ، وأنه لم يكن يصرح لهم بتناول أى طعام قبل أن يتساقطوا مسافات طويلة . وقد وردت تفاصيل عن تدريب الأمراء والفراغة على جدران حجرين: إحداهما لتحتوئس الثالث والأخرى لابنه خبروع الذى خلفه على العرش باسم أمنحوتب الثاني ، والذى كان — حسبما ورد فى تقرير الأطباء الذين تفحصوا مومياءه — ذا قوة فذة ، إذ قيل عنه إن ذراعه ثقيلة وإنه لم يُعرف من بين جنوده أو مشايخ البلاد أو كبار (رتنو) من يقوى على شد قوسه .

وكان على المحارب أن يتدرب على التجديف والرماية والفروسية . . قالت المتون عن الأمير خبروع : . . إنه كان صلب الذراع ، وإذا ما أمسك بالمجداف وأدار دقة الزورق على رأس ماتى بحار ، فهو لا يعرف التعب ، بل ما يزال يُعْمِل مجدافه الذى طوله عشرون ذراعاً عندما تقرب المركب من مرسأها بعد نصف أتور (مسافة) ، بينما يكون التعب قد نال من البحارة كل منال . . وقيل عنه فى الرماية : وشد ثلاثمائة قوس صلبة لامتحانها تميز الصانع الغي من الماهر . وبعد أن اختار لنفسه قوساً لا عيب فيها ولا يقدر غيره على ثنيها ، دخل المرمى الشمالى

على ركابه ، مثل (موتو) في جبروته ، قرأى به أربعة أهداف من نحاس آسية ، سمك كل منها راحة يد ، ووضعت بحيث تفصل بين كل اثنين منها عشرون ذراعاً ، فأمسك بقوسه ، وانتقى أربعة من الشباب ، وأسرع نحو الأهداف وهو يرمى بالشاب مثل (موتو) فيخترق كل سهم الهدف ويسقط من خلفه ، ثم يعالج التالى . وهذا ما لم يقدر عليه أحد سوى الملك الشديد البأس الذى نصره آمون ، هذه الرواية ، التى رويت أيضاً عن أبيه (من خبر رع) تذكرنا بما رواه هوميروس فى الأوديسة — بعد تحوتس بألف سنة — عن أوليسوس بعد ما عاد من مغامراته ولم يعرفه أهله إلا عندما شد قوسه التى لم يكن غيره يقوى عليها .

أما شغفهم بالفروسية فظاهر من رواية أخرى عن الأمير نفسه — قبل أن يقوم بأعمال (موتو) . فإنه برع فى ترويض الخيل — وعندما ترامت إلى أبيه (من خبر رع) الرهيب أخبار مهارته ، سر لها وازدهى بها وأمر أن يعطى أحسن الخيل التى فى حظائره ليدربها ويتويها ، لجمال منها الأمير الشاب خيلاً نادرة المثال لا تعرف للتعب معنى . ومن الروايات الأخرى الدالة على ولوعهم بالخيل أن رمسيس الثالث كان يتفحص خيله بنفسه

يوميا وأن (بيانكى) عندما فتح بلدة (خعونو) وقهر الأمير
(نمارت) زار المظائر ووجد خيائها في حالة هزال شديد نتيجة
للحصار الطويل الذى فرضه على البلد ، فحق على عدوه وقال له :
« بتدر ثقتى بأنى حى ، وأن أنفى شائخ فى الحياة وأنى أحب رع
أقول إن تجويعك الخيل أقى على قلبى من أظلم عمل أتيت به ...
أما تعلم أن الإله بسط ظله على ؟ ... لقد ولدت من بطن إلهى ،
إن البذرة الإلهية فى ، .

ولم يتف الرعاية عند هذا الحد ؛ بل كانوا مولعين بالقنص
فنجدهم يقطعون مسافات طويلة ليقتنصوا الوحوش التى اختفت
إذ ذاك من وادى النيل . ونرى (من خبر رع) ذاته أنه
يذهب إلى وادى الفرات ، حيث يهاجمه قطيع من مائة وعشرين
فيلا يتوجه أضخمهم نحوه فيعرض حياته للخطر ، ويكاد يفك
به لولا زميله آمنحتب الذى قطع خرطوميه . . ولم يذكر
(من خبر رع) هذا التفصيل فى الرواية الرسمية التى أمر بنقشها
على الحجر فى (نباتا) مع أنه قال فيها : « رويت هذا دون كذب »
ولم تكن تعرف الحقيقة لو لم يروها آمنحتب نفسه ...

وكذلك نرى رمسيس الثالث فى تصاوير مدينة حابو يصطاد
الأسود بالسهام والرماح . . وهناك تصاوير أخرى تبين كيف

كانوا يقتنصون الثيران الوحشية وغيرها من الوحوش كفرس البحر . الخ ،

أما الجمهور فإن ألعابه لم تكن أقل تبايناً . ونجد صورها في مقابر بنى حسن (شرق المنيا) ، تغطي جدرانها ، منها ألعاب الكرة ، والمصارعة بمختلف حركاتها ، وسكناتها ، وألعاباً تذكرنا بما نسميه اليوم الرقص و « الجباز » الإيقاعي ، وتلك الصور جديرة بأن يدرسها المختصون ويقارنوها بالمصارعة الحديثة ، فقد يكشفون أن الكثير من الجديد مستمد من القديم ، ثم لعلمهم يجدون فيها جديداً ينفعهم . ومن الألعاب التي مارسوها : ألعاب سباق مختلفة ، ومحاولة فريق شد فريق آخر لإلقائه على الأرض الخ . . أما الفتيات فكن يفضن ألعاب المهاراة على ألعاب القوى ، كأن يتبادلن الكرات راكبات ظهور زميلاتهن ، وكان ينبغي لكل شابة أن تجيد الرقص . وكان يربطن في آخر صفائهن كرات ويمسكن المرأة بأيديهن — ويقفزن ويستبدن ويلتوين على تصفيق المتفرجين الإيقاعي ، كل هذا كان من شأنه أن ينشئ جيلا من الشباب قوبا شجاعاً سريع الحركة مفتول العضلات نحيف الخصر ، وذلك هو الشباب الذي أعجب العالم بشكله المصور على النقوش القديمة .

النظافة الشخصية :

لقد أعجب السياح الإغريقون بمختلف مظاهر نظافة المصريين مثل عادة غسل أواني الشرب واستعمال الملينات ، والمتنيمات شهريا . ولا شك في أن الدين والسكينة فضلاً كبراً في تعليم الشعب النظافة . وبعد أن أشفق هيرودوت على السكينة من تمنائهم في النظافة قال : إنهم يجدون في مناصبهم بالضرورة ما يعرضهم عن هذه القيود .

ولم يعرف المصريون الصابون (اخترع فيما بعد) بل كانوا يستعملون في الغسيل الصودا أو الرماد أو النطرون ، وهي مواد لا بأس بها حيث أنها تذيب الدهنيات . وكانوا يدهنون البشرة بالزيوت والروائح لصياقتها ، وبزيت الحلبة للتخلص من شوائب الشيخوخة . وكانوا جميعاً — رجالاً ونساء — يتخلصون مما ينمو على أجسامهم من شعر إما بالتف أو بالحلاقة . . أما السكينة فكانوا يخلطون شعر رؤوسهم ووجوههم ويلبسون الشعر المستعار واللحي الصناعية .

ومن الأدمان التي كانت تستعمل لمنع شيب الشعر دم الثيران السوداء الصغيرة ودهن الثعابين السوداء ورحم القط وبيض

الغراب ؛ ولشفاء الصلح : دهن الأسد وفرس البحر والتساح والقط وشوك القنفذ المحروق وقدم الكلب وحافر الحمار . ويلاحظ أن استعمال أدهان الحيوانات السوداء لإعادة لون الشعر، وكذلك دهن الأسد وفرس البحر — اللذين يتمتعان بلبدة غزيرة لإعادة الشعر إلى الصُّلح — مبنيان على القياس، ومع ذلك فليس من شك في أن نتائج علاجاتنا الحالية لا تفوق ما كانت تؤديها تلك العلاجات التي نهزأ بها .

وكانوا يعنون برائحة لبسهم وأجسامهم وأفواههم ، فكانوا يبخرون ثيابهم بمثل هذه التبخيرة التي وردت في لقاقة إبرس : لبان جاف ، بذر الصنوبر ، صمغ التريبت، قرقة ، بذر الشمام ، غاب فينيقية ، وهذه كلها تصحن وتوضع على النار . وكان هذا المزيج يخلط بالعسل وتركب منه أقراص للاستحلاب في الفم ، أو يوضع على حجر ساخن لتبخير المنازل .

ومن الوصفات التي كانت تستعمل للتخلص من البراغيث والذباب والبعوض والسحالي والثعابين مزيج من النطرون والفحم ونبات قوى الرائحة اسمه (بيت) يرش به المنزل . وكان هذا ولاشك علاجاً ناجحاً للتخلص من تلك الآفات .

وهناك وصفات أخرى لصيانة المنازل تبدو لنا عجيبة ،
 منها استعمال شحم القطط لإبعاد الفيران ، وما نشك في أن هذه
 الفكرة مردها إلى أن الفيران تحببها القطط تنفر من شحمها
 ولو كانت ميتة ؛ وسنأخذ حيوان (سمر) على النار حتى يموت
 لقتل السحالي وبالعكس قتل السحالي بالنار للتخلص من الحيوان
 الذي يسمى (سمر) ، الأمر الذي يفرض تجاوباً خفياً بين
 الحيوانين ؛ ومنها كذلك إدخال سمكة (بلطية) بحففة في جحور
 الثعابين لمنعها عن الخروج .. وقد وردت كل هذه الوصفات
 في لفافة إبرس ولا أصل لها من الوجهة الواقعية .

واهل المنازل :

استطرد هيرودوت في عجبه من المصريين فقال أيضا :
 « إن المصريين يختلفون في عاداتهم عن الشعوب الأخرى ...
 فهم يتناولون طعامهم خارج مساكنهم بينما يقضون حاجتهم
 داخلها . » . وليس من شك في أن هذا القول يدل على وجود
 مراحيض داخل المنازل .

وبما يؤكد هذا استكشاف نماذج مصفرة كانت توضع
 مع ملحقاتها في القبور ليعمرها المتوفون بعد وفاتهم ، فقد

وجد في بعضها مراحيض مكونة من مربعين منحرفين قاعدتهما إلى أعلى وبينهما وعاء ممتلئ إلى نصفه بالرمل . وشكل هذا المراض لا يختلف عما وجد عليه طوال الحضارة المصرية .

وقد ذكرت رواية — ترجع إلى عهد المملكة الوسطى — وجود حمام في بيت أحد الأمراء الذين عاصروا سنوسرت ، ولكن لم يعثر على أى أثر لحمامات أو مراحيض في أول مدينة مصرية قديمة كشفت كاملة وهى كاهون (اللاهون) التى بناها فى الفيوم سنوسرت (١٩٠٦ — ١٨٨٧ ق م)

أما المملكة الجديدة فإتنا نجد فى بيوت مدينة تل العمارنة (اختاتن ، ومعناها «أفق قرص الشمس») تحميماً بيناً فى الجهاز الصحى . ويرجع الفضل فى ذلك إلى مؤسس هذه المدينة «إختاتون» الفرعون المجدد فى القرن والدين والفلسفة الذى امتاز بالحساسية المرفهة . . وقد كشف فيها بورخارت أربعة أنواع من المراحيض . ووجدت أيضاً مقاعد مفتوحة من أعلى قيل عنها إنها مراحيض قابلة للنقل .

ومن العصر نفسه وجدت أمثلة لعدة حمامات ، إلا أنها كلها مبنية لصب الماء من أعلى فوق الرأس ، لا للتنفاس فى حوضها

كما كان يفعل الإغريق . ولا شك في أن الطريقة الأولى أصح من الثانية . وكانت جدرانها في منازل الطبقات الغنية تغطي بالحجر أو الخنزف . وكانت تزود في أسفلها بخزانات ينساب إليها الماء الملوث . . وبلغت ذروة الترف في عهد رمسيس الثالث الذى بنى معبد مدينة هابو ، ثم هدمه وشيد على أنقاضه معبداً آخر مزوداً بعدد كبير من الحمامات ليستخدمها هو وحرمة .

وأظهرت حفريات بورخارت في معبد ساحورع (الأسرة الخامسة) ٢,٧٠٠ ق م . — ستارة — أحواضاً من الحجر المبطن بالمعدن ، في كل حجرة وفي كل عمر . وفي أسفل كل حوض منها فتحة تسدها سدادة من المعدن مربوطة بسلسلة . وتتصل فتحات الأحواض بشبكة من الأنابيب الجوفية طولها مجمعة (أربعائة متر) مصنوعة من صفائح النحاس المطروقة والمطوية على شكل أسطوانى مراعى فيها تراكب الأطراف ووضع الشفتين إلى أعلى ، وتنتهى الشبكة إلى الوادى . ولكن هذا النظام يبدو فريدا . وهو على كل حال لم يعم فيما بعد ، فإن مياه الانسياب من المساكن كانت تنسرب في مجار مفتوحة في وسط الشوارع ، كما كانت الحال في أوروبا إلى عهد قريب . وكانت أحيانا تجمع في أوعية خارج المنازل .

أما عهد البطالمة ، فإنه يتسبب إلى حضارة الإغريق أكثر
من انتسابه إلى الفراعنة، وقد عم فيه استعمال المراحيض وانتشار
الحمامات العامة المزودة بالماء الساخن والبخار حتى وصل
عددها في الإسكندرية وحدها عند فتح العرب إلى ٤٠٠٠ .



الدفن والتحنيط

الدفن

العقائد الدينية السائدة بين المصريين القدماء في عهد الأسر حفظ جسد الميت وصيانه وإبقائه على شكله قبل الوفاة ، حتى يتسنى للروح « با » أن تتردد عليه في قبره ، وأن تعود إلى الحياة الحسية . وأقدم وسيلة للدفن — في العصر الحجري الحديث — لم تزد على وضع الجثة في الأرض ، ولم يعثر على جثث أو قبور مبنية ترجع إلى هذا العصر . وطبيعة مناخ مصر هي التي أوحى بهذه الوسيلة ، فالجوارح . وإذا دفنت الجثة في طبقة رمل ذي مسام أعلى من منسوب المياه الجوفية ، جفت وتطهرت من الميكروبات . ثم إنها إن ظلت على جفافها قدر لها أن تبقى إلى الأبد ، لا يصيبها التحلل ، ولا يدركها البلي . ومن هنا فقد اكتفى في أول الأمر — قبل عهد الأسر — بمواراة الجثة التراب : إما عارية ، وإما محاطة بجلد حيوان أو بكفن رخوا . وفي عهد الأسر دفنت جثث الملوك والأغنياء في مقابر عميقة بطنت جدرانها بالخشب أو الطين

المجفف ... وتغير الكفن فأصبح مكوناً من مجموعة من الأربطة المحكمة، وأخذ كل من المقبر: والكفن يتطور إلى أن وصلت أساليب الدفن إلى ذروة الكمال والتعقيد في عهد توت عنخ آمون الذي حنطت جثته ثم لفت بست عشرة طبقة من الأربطة المصنوعة من الكتان ووضعت في صندوق محفوظ في صندوقين آخرين وتابوت من الحجر وأربعة هياكل . ولم يكن بد من أن يؤدي هذا التطور في طرق التكفين فضلاً عما وصلت إليه المقابر من السعة والعمق إلى تأخير جفاف الجثة . . ومن ثم إلى احتمال تعفنها وإلى ضرورة ابتكار حيل جديدة لضمان صيانة الجثة . . ومن هنا نشأت وسائل التحنيط . .

التحنيط

ليس في الاستطاعة تحديد الوقت الذي بدأ فيه قدماء المصريين تحنيط موتاهم . وأول مثال لهذا عثر عليه في مقبرة الملك « حوتب — حرس » والدة خوفو وظلت عادة التحنيط متبعة في مصر منذ ذلك العهد الثاني حتى بداية العهد المسيحي ، إلا أنها كانت مقصورة في أول عهدها على الملوك والكهنة ووجهاء القوم ولم تنتشر وتغلغل إلى الطبقات الفقيرة إلا بعد وقت طويل .

وكانت أساليب حفظ الجثث في البداية بسيطة . ثم تطورت وتعمقت فصارت الأحشاء تنزع من الجثة وتحفظ في أوعية خاصة (وهي التي أطلق عليها « الأواني الكانوية ») .. وما فتئت هذه الأساليب تتطور وتتطور ، حتى بلغت أعلى درجات الكمال في عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وبما يؤسف له أنه لم يرد ذكر الطرق التي كانت متبعة في أى مؤلف معاصر ، اللهم إلا في لفاقة أيبس التي ترجع إلى الأسرة السادسة والعشرين أى إلى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد والتي تصف تخنيط عجل أيبس ... وفي وثيقة أخرى — ترجع إلى العهد الوسيط الأول أو الثاني — أشير إلى فن التخنيط السرى . ولقد وصف هيرودوت في القرن الخامس ق . م . وتلاه في ذلك ديودورس في القرن الأول الميلادى طقوس التخنيط بشئ من التفصيل ، الأمر الذى ساعد العلماء في مهمتهم عندما عملوا إلى فحص الجثث ودراسة محتوياتها ومحاولة الوقوف على المواد التي استعملت في هذه العملية الدقيقة . وإذا كانت طرق التخنيط قد اختلفت على مر العصور ، في خلال تاريخ مصر الطويل كما يتضح ذلك من جثث العهود المتعاقبة ، فإن هناك — مع ذلك — طريقة مثالية يمكن أن توصف على الوجه التالى :

أولاً : تفرغ الجمجمة من المخ بوساطة « سيخ » طرفه ملتو كالخشب (السنارة) ، يدخل في الأنف ، وتثبت به قاعدة الجمجمة ، ثم يهرس بها المخ بحيث يصبح كالعجينة ويمكن سحبه عن الطريق نفسه أى عن طريق الأنف . ويبدو أن هذه الخطوة لم يبدأ فى استعمالها إلا منذ عهد الأسرة الثانية عشرة . وكان تجويف الجمجمة يترك بعد ذلك فارغاً ، أو يملأ بالصمغ أو بخليط من الصمغ والشاش . أما فى عهد البطالة فكان يستعاض عن هذه المواد بقطران الخشب .

ثانياً : تفتح البطن من الجانب بسكين من حجر الشست ، وتزرع أحشاء البطن والصدر ماعدا الكليتين والقلب ، ثم يترك هذان التجويفان فارغين ، أو يملآن أحياناً على الوجه الذى كانت تمشى به الجمجمة . وفى العهود المتأخرة كانت الأحشاء تعاد إلى البطن بعد لفها . وقد وجدت بعض موميات لأشخاص لا يمكن القول بأن ذويها ضنوا بالمال فى سبيل تخميطها — تحتوى على كل أحشائها ، كما عثر على موميات أخرى يبلاد النوبة غاوية البطن ولا يظهر عليها أى أثر لفتح أجرى فيها .

ثالثاً : تحاك فتحة البطن . وكان ذلك فى حالات قليلة ، أما فى معظم الحالات فكانت تغلق بصب الصمغ المصهور عليها . كما

أنه كان يوضع شمع النحل في فتحات الأذنين والعينين والآنف والفم ، وكذلك على فتحة البطن .

رابعا : كانت الأحشاء تنظف في نبيذ النخل والعنقاير العطرية ، ثم تحشى بالمر والأنيسون والبصل ، وتوضع بعد ذلك في الأواني الكانوية ، أو تعاد — في حالات نادرة — إلى البطن خامساً : التجفيف ، وهو العملية الأساسية للتحنيط التي تكفل للجثة البقاء وعدم التحلل . ولقد ظن البعض أن المصريين كانوا يجففون الجثث بواسطة الحرارة أو الجير الحي ، إلا أننا نستبعد هذه الطرق نظراً لافتقارنا إلى أدلة ثابتة في هذا الصدد .

وقد استعمل النطرون للتجفيف وعثر عليه بكثرة في أوان عديدة ، وفي مخلفات التحنيط ، وفي بعض الأواني الكانوية ، وفي القبور ، وداخل تجويف بعض الموميات ، وفي أنسجتها ، وضمن المواد الدهنية المستخلصة منها ، وكذلك في الصمغ وغيرها مما كانت تحشى به الأحشاء ، وعلى أربطة التيل . هذا فضلاً عن أنه وجدت رواسب منه على بعض الآلات والأسرة والمناضد التي استخدمت في التحنيط .

ويروى هيرودوت أن الجثة كانت توضع في النطرون سبعين يوماً ... وقد ظن في بادئ الأمر أنها كانت تنفس في محلول

منه ، إلا أن المرجع — حسب التجارب التي أجراها لوكاس على الطيور — أنها كانت توضع في نظرون جاف ، إذ أن الملح العادي يحدث فيها تآكلا سريعا، وأن فعل المحاليل مؤقت وسرعان ما تنصاب الجثة بالتحلل بعد إخراجها منها ..

سادساً : وبعد أن يتم تجفيف الجثة ، كانت تترع من النظرون الجاف ثم تفصل بمحلول منه ، وتدهن بالزيوت العطرية ، وكثيراً ما كانت تدهن الأصابع بالجثة وتملأ التجاويف الناجمة عن التحلل في العضلات أو الأعضاء في أثناء التجفيف بالككتان والرمل ونشارة الخشب ، وتدهن الجثة بالصمغ .


سابعاً : بتيت مرحلة التغليف ... كانت الجثة تلف بلفافات من الككتان المشبع بالأصماغ .

وكانت هذه الطريقة الباهظة النفقات تدبج لتخيط جثث الأثرياء .. أما عن جثث الطبقات المتوسطة فإن هيرودوت يروى أن المحنطين كانوا يكتفون — للتقليل من النفقات — بحقن الجثة من الشرج بزيت أشجار الأرز وبإغلاق الفتحة المترتبة على هذا الحقن بالحياطة طوال فترة التجفيف بالنظرون ، فإذا ما انقضت هذه الفترة فتح الشرج من جديد حاملاً معه ما أذابه أوقته من الأحشاء والفضلات ، إلى حد أنه كثيراً ما كان

لا يبقى من الجثة سوى العظام والجلد . وهذه الطريقة هي التي
 جاءنا وصننها في لفافة أبيس الآتية الذكر .
 وفيما يتعلم بمحثة الفقراء كان يستعاض عن زيت أشجار
 الأرض - في تحنيطها - بزيت بذور الفجل . وقد قال بليزوس
 إن استخدام هذا الزيت في هذا المضمار سبب غلاء الفجل
 في ذلك الوقت .



حكم السائح

 الحتام يجدر بنا أن نزن قيمة الحكم الذي نصدره على طب قدماء المصريين ، فإن الأصول التي يصح أن نعتمد عليها في هذا الحكم لا تربى على ثمانى ورقات مصنفه من أصول مهلهلة ، وصلت إلى ناقلها ناقصة مشوهة . استنسخنا أولئك على علاتها .

ولا يحق لنا أن نكون كمن يصف مجرى النيل نقلا عن مشاهدات سطحية لسائح وسط مجراه ، مع جهلنا بما به من تلوج أواسط إفريقية وبحيراتها ، ومنبعه الجائر في أوجاندا ، وما التقى به من روافد في السودان والحبشة ، وما خسره بالتبخر في مستنقعات منطقة السدود ، ثم ما حبا به واديه من نعم لا حصر لها .

ثم ، هل كان هذا المزيج الغريب من الطب والشعوذة مجرد خلط من نساخين وضعوا جنباً إلى جنب علماً تجريبياً منطقياً موجها إلى علماء من الأطباء كالذى جاء في لفافة إدوين سميث — ودجلا وسحرا موجهين إلى جمهور ساذج لم يفتأ منذ القدم يرتاح إلى هذا الضرب من الطب ، كالذى جاء في لفافة لندن . أم إن الطب كان حقا يمارس على النحو الذي يبدو في لفافة إبرس ؟

لا شك أن المستقبل سوف يكشف عن أسرار ما تزال كامنة في أرض مصر الطبية الضنيّة ، أسرار تتناول أصول الطب المصرى والحضارة المصرية ، وكيان مدارس الطب (بيوت الحياة) ووسائل التعليم فيها ، وعلاقة طب مصر بطب البلاد المجاورة والحضارات التى قد تكون سبقتها ، وانتقال العلوم الطبية من مصر إلى اليونان ، وضخامة الدّين الذى على الإغريق لأساتذتهم المصريين . نعم لم يعد مجال للشك فى أن هذا الدين بالغ العظم ، وقد أشرنا إلى بعض ما اقتبسه أبقرات وغيره من مصر ، إلا أن الكتاب الغريبين لقلة معلوماتهم عن مصر ، ولصعوبة الوصول إليها ، مع سعة دراساتهم للحضارة الإغريقية جعلوا من تلك الأخيرة أساسا لما وصلوا إليه من مدنية ، جاهلين أو متجاهلين الأصول الحقيقية للكنوز التى خلفها اليونان للعالم بعد ذلك .

ولذا فإن المصريين يستحقون إعجاب الجميع وتقديرهم ، وفى ذمة العالم أن يعترف بفضاهم عليه ، ذلك لأنهم — مع التحفظات التى أبديناها — كانوا أول من حاول التخلص من القيود التى ربط بها السحرة والكهنة الفكر البشرى ، وأيا كان حكمنا على درجة نجاحهم فى تلك المحاولة فإن مجهودهم هذا مهد السبل لمن تبعهم ، من إغريق أو غيرهم ، نحو التحرر والمعرفة .

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها لمونه :

- ١ - الثقافة العربية أسبق من | للأستاذ عباس محمود العقاد
ثقافة اليونان والعبريين |
- ٢ - الاشتراكية والشيوعية للأستاذ علي أدهم
- ٣ - الظاهر بيبرس في القصص الشعبي للدكتور عبدالحمد يونس
- ٤ - قصة التطور للدكتور أنور عبدالمعطي
- ٥ - طب وسحر للدكتور بول غليونجي

الثن قرشان فقط

المكتبة الشفافية

مكتبة جامعة لكل أنواع المعرفة
فاحرص على ما فاتك منها...

والطلب من :

- ١ - دار القلم ١٨ شارع سوق التوفيقية
- ٢ - مكتبة النهضة المصرية ٩ شارع عدلى
- ٣ - مكاتب شركة توزيع الأخبار... فى الإقليم المصرى
- ٤ - وكلاء الشركة القومية فى جميع البلاد العربية

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارئ أن يقيم في بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة متخصصين وقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . في أوله وفي منتصفه .

الكتاب القادم

فَجْر القصة المصدرة للأستاذ يحيى مكي

مطابع دار القلم بالقاهرة